

الفصل الحادي والعشرون

جون كالفن

(١٥٠٩ - ١٥٦٤)

١ - شبابه

ولد في نويون بفرنسا يوم ١٠ يوليو عام ١٥٠٩ ، وكانت مدينة لها طابع كنسي ، يسيطر عليها أسقفها وكاتدرائيتها ، وهناك في البداية وجد مثالا من حكومة يسيطر عليها رجال الدين - حكم رجال الدين لمجتمع باسم الرب .

وكان أبوه جيرار شوفان سكرتيراً للأسقف ، ووكيل أعمال في إدارة الكاتدرائية ، ووكيلا للمقاطعة يشرف على الأعمال المالية . وقد مات أم جان وهو لا يزال حدثاً ، فتزوج أبوه للمرة الثانية ، ولعل كالفن يدين بجانب من روحه القاتمة إلى ما عاناه من تربية صارمة على يد زوجة أبيه . ونذر جيرار ثلاثة من أبنائه للكهنوت ، وهو على ثقة من أن في وسعه أن يجد لهم مناصب ، وجصل لاثنين منهما على صدقات بيد أن واحداً منهم انتقل إلى هرطيق ، ومات وهو يرفض تناول القربان المقدس . وحرّم جيرار نفسه من الغفران بعد خلاف مالي مع إدارة الكاتدرائية ، ولقي بعض المتاعب قبل أن يوسد جثمانه في الأرض المقدسة .

وأرسل جان إلى كلية دي مارش في جامعة باريس . وقيد نفسه باسم جوهانس كالفينوس ، وحنق كتابة اللاتينية براءة فائقة ، ونقل فيما بعد إلى كلية دي مونتيجو ، ولا بد أنه سمع هناك أصداً ترداد عن تلميذها المشهور أرازموس ، وظل هناك حتى عام ١٥٢٨ ، وهو العام الذي التحق

بها صنوه الكاثوليكي أجناتيوس لويولا . ويقول أحد الثقات من الكاثوليك « أن القمص التي رويت في وقت ما عن شباب كالفن الطائش ، لا تستند إلى أساس » (١) والأمر على تقيض ذلك تماماً ، فكل الدلائل تشير إلى أنه كان طالباً مثابراً نجحولا معتصماً بالصمت تقياً و « رقيباً صارماً في نقد أخلاقيات زملائه » (٢) ، ومع ذلك فإنه كان محبوباً من أصدقائه ، الآن وفيما بعد ، حياً خالصاً لا يتزعزع . وفي غمار السعي الحثيث للحصول على معرفة ما وراء الظاهر ، أو نظرية تفتن العقول ، قرأ كثيراً في الليل . ولقد طور ، حتى في تلك السنوات التي قضاها في طلب العلم ، بعض الأوصاف الكثيرة التي انتابت حياته الناضجة ، وساعدت على تكوين مزاجه .

وفي أواخر عام ١٥٢٨ جاءه على غير انتظار توجيه من أبيه بأن يذهب إلى أورليانز ، ويدرس القانون ، ويظن كما قال الابن « لأنه رأى أن علم القوانين قد أدر على الدين حصوله الثراء العريض » (٣) . وعكف كالفن في غبطة على الدراسة الجديدة ، إذ خيل إليه أن القانون ، وليس الفلسفة أو الأدب ، هو أبرز نتاج فكري حققته البشرية ، وأنه يصوغ نوازع الإنسان الفوضوية ويجولها إلى نظام وسلام .

ونقل إلى اللاهوت وعلم الأخلاق ، منطلق قوانين جستنيان ودقتها وصرامتها ، وأطلق على خير مؤلفاته اسماً مازال . وأصبح ، فوق أي شيء آخر ، مشرعاً ، وصارنوما وليكورجوس مدينة جنيف .

وبعد أن حصل على درجته في ليسانس أو بكالوريوس في القوانين ، (١٥٣١) ، عاد إلى باريس وعكف في نهم على دراسة الأدب الكلاسي ، وأحس بالرغبة العارمة الشائعة ليرى لنفسه مؤلفاً مطبوعاً ، فنشر (١٥٣٢) مقالا باللاتينية عن *De clementia* لسينيكا ، وبدأ أشد المشرعين الدينيين صرامة حياته العملية العامة بتحمية للرحمة . وأرسل نسخة إلى أرازهوس ،

حياته فيها باعتباره « المعلم الثاني في عالم المجد » (بعد شيشرون) و « أول
إشراقة للآداب » . ونحيل للناس أنه وقف حياته على الإنسانية عند ما
وصلته بعض عظام لوثر وأثارته بما انطوت عليه من جرأة . وكانت
الدوائر الناشطة في باريس تناقش الحركة الجديدة ، وليس من شك في أنه
دار حديث طويل حول الراهب المتهور ، الذي أحرق منشور البابا ،
وتحدى قرار إمبراطور بتحريم التعامل معه ، والحق أنه قد سقط في سبيل
البروتستانتية شهيداً في فرنسا . وكان بعض الرجال الذين يحثون على إصلاح
الكنيسة من بين أصدقاء كالفن ، وكان أحدهم وهو جيرار روسل أثيراً
لدى شقيقة الملك مرجريت دي نافار . واختير صديق آخر ، وهو نيكولاس
كوب ، ليشتغل منصب مدير الجامعة ، ولعل كالفن كان له ضلع في
إعداد الخطاب الافتتاحي المشؤم ، الذي ألقاه كوب « أول نوفمبر سنة
١٥٣٣ » . وقد بدأ الخطاب برجاء أرازمي لمسيحية مطهرة ، واستطرد
ليشرح نظرية لوثر في الخلاص عن طريق الإيمان والعفو ، وانتهى بالتماس
الإصغاء في تسامح للأفكار الدينية الجديدة . وأثار الخطاب حنقاً بالغاً ،
وانفجرت جامعة السوربون غضباً ، وبدأ البرلمان في اتخاذ إجراءات ضده
كوب بتهمة الهرطقة ، ففر هارباً ، وعرضت مكافأة قدرها ثلاثمائة كراون
لمن يقبض عليه حياً أو ميتاً ، ولكنه استطاع أن يصل إلى بازيل ، وكانت
وقتذاك تعتنق البروتستانتية .

وحذر الأصدقاء كالفن وأخبروه أن اسمه أدرج مع اسم روسل في
قائمة المطالبين للقبض عليهم ، ويبدو أن مرجريت قد تشفقت له ، فغادر
باريس (يناير سنة ١٥٣٤) ووجد ملاذاً له في أنجويم ، ولعاه بدأ هناك ،
بمكتبة لوى دي تديه الغنية بما تضم من كتب قيّمة . في كتابة مؤلفه
Institutes . وفي مايو جازف بالعودة إلى ثويون ، وتنازل عن روايته ،
التي كانت تدر عليه دخلاً يعول به نفسه . وهناك قبض عليه وأطلق
سراحه ، ثم أعيد القبض عليه ، ثم أطلق سراحه مرة أخرى . وعاد سرّاً

إلى باريس ، وتحدث مع زعماء البروتستانت ، والتقى بسير فيتوس ، الذي قدر عليه أن يخرقه . وعند ما وضع بعض المتطرفين من البروتستانت إعلانات ملصوقة مهينة في أماكن متفرقة من باريس ، انتقم فرانسيس الأول منهم بأن أمعن في اضطهادهم ، وفر كالفن في الوقت المناسب (ديسمبر ١٥٣٤) ، وانضم إلى كوب في بازيل وهناك أتم ، وهو شاب في السادسة والعشرين من عمره ، عملاً يعد من أبلغ الأعمال في أدب الثورة اللدنية ، وأشدّها حماسة ، وأوضحها معنى ، وأكثرها تمشياً مع المنطق ، وأعظمها تأثيراً ، وأشدّها جميعاً إرهاباً .

٢ - عالم اللاهوت

ونشر الكتاب باللغة اللاتينية (١٥٣٦) باسم « مبادئ الدين المسيحي » ، وفي خلال عام واحد نفذ الكتاب ، واستدعى الأمر إصدار طبعة جديدة ، فاستجاب كالفن ، وأعد نسخة مطولة (١٥٣٩) باللاتينية أيضاً ، وترجمها إلى الفرنسية عام ١٥٤١ . ويعد هذا الشكل من التأليف من أعظم ما أنتجته القرائح تأثيراً في النثر الفرنسي . وحرّم برلمان باريس تداول الكتاب باللغتين كليهما ، وأحرقت نسخ منه علناً في العاصمة ، واستمر كالفن طوال حياته يعمل على إضافة فصول إلى هذا الكتاب وإعادة نشره ، وبلغت عدد صفحاته ١١١٨ في شكله النهائي .

واستهلت الطبعة الأولى من الكتاب بـ « مقدمة إلى أعظم ملك مسيحي لفرنسا » وهي مقدمة تفيض بالمشاعر ، ولكن بأسلوب رصين . ووقع حادثان أتاحا فرصة الحوار مع فرانسيس أولهما : الأمر الملكي الصادر في يناير عام ١٥٣٥ ضد الفرنسيين البروتستانت ، وثانيهما : الدعوة التي وجهها فرانسيس في الوقت نفسه تقريباً لميلانكتون وبوسر ، كى يحنضرا إلى فرنسا ، ويرتبا تحالفاً بين الماكية الفرنسية وبين الأمراء اللوفرين ضد شارل الخامس . وكان كالفن يأمل في أن يوطد المأرب السياسي على دعامة

من الجدل اللاهوتي ، وأن يعاون في استمالة الملك ، مثل أخته ، إلى القضية البروتستانتية ، وكان تواقاً إلى أن يفرق بين هذه القضية وحركة اللامعمدانيين ، التي اقتربت وقتذاك من الشيوعية في منستر . ووصف المصلحين الدينيين الفرنسيين بأنهم وطنيون محافظون للملك كارهون لكل اضطراب اقتصادي أو سياسي . وتكشف بداية ونهاية هذه المقدمة روعة أفكار كالفرن وجزالة أساوبه :

« عند ما بدأت هذا العمل يا مولاي لم يكن هناك شيء أبعد من التفكير في تدبير كتاب ، يقدم فيما بعد إلى بجلالتكم ، وكنت لا أقصد إلا أن أطرح أمامكم بعض مبادئ أولية يستطيع بها المتسائلون عن أمور الدين أن يفقهوا طبيعة التقوى الصحيحة . . . ولكنني عند ما أدركت أن غضب بعض الأشرار في مملكته قد اشتد ، إلى حد يجعلهم لا يسمحون بوجود عقيدة صحيحة في البلاد ، رأيت من الواجب أن استفاد مني ولو في العمل نفسه . . . لقد عرضت اعترافي عليك ، لكي تعلم طبيعة تلك العقيدة ، التي يستهدفها هذا الغضب ، التي لا يعرف حدوداً ، والذي يعتمل في صدور هؤلاء المجانين ، الذين يزعمون البلاد بالسيف والنار ، ومن أجل ذلك فأنا لا أخشى التسليم بأن هذه الرسالة تحتوي على ما يخص لتلك العقيدة ذاتها . والتي يستحق من يعتنقها ، طبقةً لما أثاروه حولها من دعاوى ، أن يعاقب بالسجن والنفي وإهدار الدم والتحريق وإبادة من على ظهر الأرض . وإنني لأعلم جيداً اللسائس الأثيمة ، التي ملأوا بها أذنيك . لكي تبادو قضيتنا بغیضة جداً في نظرك . ولكن حلامك كفيف بأن يهديك إلى التفكير في أنه إذا كان الاتهام يكتفي دليلاً على الذنب ، فهو القضاء على كل براءة في الأقوال والأفعال . . . وأنت نفسك يا مولاي تستطيع أن تبين الوشائيات الزائفة ، التي كانت تطرق أذنيك عنها (قضيتنا) ، وهي تفتضح كل يوم ، إن ما تصبو إليه فحسب إنما هو انتزاع صوبلحانات الملوك من أيديهم . هدم جميع المحاكم . . . وتقويض دعائم النظام بأسره ، وقلب

الحكومة ، وتعكير صفو السلام والأمن بين الناس ، وإلغاء جميع القوانين ،
وتبديد جميع الأموال والممتلكات ، وباختصار جعل كل شيء في حالة
اضطراب شامل .

ولذا أتوسل إليك يا مولاي - وهو بالتأكيد طلب معقول - أن تأخذ
على عاتقك الفهم الكامل لهذه القضية . التي أثرت حتى الآن بصورة
مبليغة ، وبلا اكتراث . وبلا سندا من القانون . وبدافع من العاطفة الطوبجا
أكثر من أي دعامة قانونية . ولا يذهبن بك الظن إلى أي أفكر الآن في
إعداد دفاعي عن نفسي . لكي أضمن لنفسي عودة آمنة إلى وطني الحبيب ،
فأنا ، على الرغم مما أكنه له من حب ينبغى على كل انسان أن يحس به
نحوه . لن أندم أبداً . في الظروف الحالية . على انتقال منه . ولكي أذفع
عن القضية أمام كل المتدينين . وبالتالي أمام المسيح نفسه . هل يحتسب أن
نفكر في تقويض دعائم الممالك . نحن الذين لم يسمعنا أحد نوره بكلمة
واحدة تثير الفتنة . . . نحن الذين عرفنا طوال حياتنا أننا نعيش حياة هادئة
مستقيمة عند ما كنا نعيش تحت حكمك . نحن الذين لم نهكف . حتى
في منفانا الآن ، عن الصلاة لك بالنجاح وللمساكتك بالرشاء . . . ثم إننا
لم ننتفع إلا قليلا بالإنجيل بفضل الله . وكن حياتنا يمكن أن تكون مثالا
يحتذى لمن نددوا بعفتنا وكرمنا ورأفتنا وعزوفنا عن المنكر وصبرنا وتواضعنا
وكل فضيلة أخرى هنا . . .

وعلى الرغم من بغضك لنا ونفورك منا ، بل وغضبك علينا ، فإننا
لا نياس أبداً من استعادة عطفك . لو قرأت بهدوء واطمئنان إقرارنا هذا ،
الذي نعزم تقديمه إلى جلالتك . كدفاع لنا . . . وكن إذا كانت
أذنك مشغولتين على النقيض بسماع همسات الحاقدين ، التي لا تدع فرصة
للمتهمين للدفاع عن أنفسهم . وإذا استمرت تلك العقبات الطوبجا في
اضطهادنا بالسجن والتشكيل والتعذيب ومصادرة الأموال والحرق .

وتغاضيلك عن ذلك ، فإننا سوف نغلب على أمرنا حقاً إلى أقصى حد .
ونكون مثل قطيع من الأغنام ، يساق إلى الذبح . ومع ذلك هل لنا أن
نحتفظ في صبر بأرواحنا ، وننتظر أن تمتد إلينا يد الرب القوية . . . لإنقاذ
الفتراء من نعمهم ، ولعاقبة المستخفين بهم ، الذين يتهيجون الآن في أمن
واطمئنان تام . وإني لأدعو الرب ملك الملوك أن يوطد عرشك بالعدل
والتقوى ، وأن ينتشر في ممالكك القسط والإنصاف « (٤) .

وليس من اليسير علينا ، في عصر أسلم فيه اللاهوت مكانه للسياسة ،
باعتبارها مركزاً لاهتمام بنى الإنسان والصراع بينهم ، أن نتذكر المزاج
الذي ألف به كالفن كتابه القوانين . لقد كان رجلاً هائماً في حب الله -
أكثر من سبينوزا . وكان يغلبه شعور بضآلة الإنسان وعظمة الله .

وكم يكون الأمر منافياً للعقل أن نفترض أن العقل الواهى لهذا السوس ،
الذى لا يكاد يرى بالعين المجردة ، وهو الإنسان ، يستطيع أن يدرك العقل
المشكر الذى يحكم هذه النجوم الطيعة التى لا تحصى ؟ وأن الله ، رافة
بعقل الإنسان ، قد أظهر لنا نفسه فى الكتاب المقدس ، وثبت أن هذا الكتاب
المقدس هو كلمة الله ، (كما يقول كالفن) بما له من سلطان لا نظير له
على روح الإنسان .

« اقرأ لديموستين أو شيشرون ، وقرأ لأفلاطون أو أرسطو أو لغيرهم
من هم فى مستواهم ، وأنا كفيل بأن ما تقرأه من مؤلفاتهم سوف يجتذبك ،
ويشرح صدرك ، ويحرك شغاف قلبك ، ويخاطب ليلك بطريقة مدهشة ،
ولكن إذا تحولت بعد قراءتها إلى تلاوة الكتاب المقدس ، سواء كنت راغباً
أو غير راغب ، فإنه سوف يستولى عليك بقوة عظيمة ، وينفذ إلى قلبك ،
ويطبع كلماته بقوة فى ذهنك ، إلى الحد الذى لو قارناه بما لتلك المصنفات
من أثر قوى ، فإن الجمال الذى يتسم به كلام البلغاء والفلاسفة يتبدد كاه
أو يكاد . ومن اليسير أن ندرك أن شيئاً إلهياً فى الكتب المقدسة ، يفوق
بكثير أعظم ما أحرزه الإنسان فى عالم الصناعة والزخرف « (٥) .

وعلى ذلك فإن هذه الكلمة التي نزلت علينا يجب أن تكون مرجعنا الأخير ، لا في الدين والأخلاقيات فحسب ، ولكن في التاريخ والسياسة وكل شيء أيضاً . يجب أن نتقبل قصة آدم وحواء لأننا نفسر ، بعصيانهما أمر الله ، الشر الذي فطر الإنسان عليه ، وفقدانه لإرادته الحرة .

« إن عقل الإنسان لينفر كل النفور من عمل الله ، حتى إنه ليبدرك ، ويرغب في ، ويباشر كل شيء ، يتسم بالزندقة والانحراف والخسة والندس والفجور ، وطمس على قلبه بسم الخطيئة فلم يعد يصدر عنه إلا ما هو فاسد وخبث ، وإذا قام الناس في وقت من الأوقات بعمل يبدو طيباً في الظاهر ، فإن العقل يظل دائماً متورطاً في النفاق والخداع ، والقلب يظل عبداً لانحرافه الباطني » (٦) .

وأنتي مخلوق فاسد إلى هذا الحد أن يستحق النعيم الأبدي في الفردوس ؟ ليس في استطاعة واحد منا أن نحصل عليه مهما قدم من أعمال صالحات . حتماً أنه لا بأس بالأعمال الصالحات ، ولكن موت ابن الرب الذي ضحى بنفسه في سبيل البشرية هو الذي يستطيع وحده أن يحقق للبشر الخلاص ، وليس للناس أجمعين ، لأن عدالة الرب تقتضي عذاب معظم البشر في نار جهنم . ولكن رحمته تعالى قد اختارت بعضنا للظفر بالنجاة . وقد وهب تعالى طيلاً لإيماناً راسخاً بتكفير المسيح عن ذنوبهم . لأن التنايس بولس قال : « لقد اختارنا الرب في نفسه قبل خلق العالم بأن علينا أن نكون أمامه أظهاراً . لا تشوبنا شائبة في الحب ، وقدر علينا أن نتخذ لنا أبناء . كما اتخذ المسيح عيسى ابناً له بتشيئته » (٧) . وفسر كالفن هذا ، كما فسر لوتر ، فإن معناه أن الرب قد قرر بمشيئة حرة ، لا تتوقف أبداً على ما نتسرع به من فضائل ، أو نتصنف به من رذائل ، وقبل خلقنا بوقت طويل . من منا يكتب له النجاة ، ومن يعذب في نار جهنم (٨) . ويجب كالفن على السوائ الذي يتردد ، وهو : « لماذا شاء الله النجاة لبعض الناس . والعذاب لآخرين ، دون اعتبار لما قدموه من أعمال ، بكلمات بولس : « لأنه قال

لموسى إني أتغمد برحمتي من أشياء وأعفو عن أشياء» (٩) . ويختم كالفن حديثه بقوله :

« وطبقاً لهذا نوؤكد أن الرب قدر بمشيئة أزلية لا تتبدل ، من يكتب له الخلاص ، ومن يحكم عليه بالعذاب والحلاك ، ونؤكد أن هذه المشيئة ، فيما يختص بالاختيار ، تقوم على رحمته ، التي يتغمد بها من يشاء ، دون اعتبار لما يستحقه الإنسان ، ولكن الدين حكم عليهم بالعذاب في النار أغلق دونهم باب الحياة ، بمقتضى حكم عادل لا سبيل إلى نقضه ، ويدق على الفهم» (١٠) .

بل إن خروج آدم وحواء من الجنة ، وما ترتب عليه من نتائج بالنسبة للجنس البشرى في رأى بولس « فرضته مشيئة الرب العجيبة» (١١) .

ويسلم كالفن بأن حتمية القدر تتنافى مع العقل ، ولكنه يرد بقوله : « ليس من المعقول أن يتقصى الإنسان هذه الأمور ، التي قرر الرب أن يخفيها عنا في نفسه ويفلت من العقاب» (١٢) . ومع ذلك فإنه يعترف بأنه يعرف لماذا يقرر الرب بصورة تحكيمية مصير ملايين الأرواح منذ الأزل : ذلك « لكي يزيد من إعجابنا بمجده» بعرض قوته (١٣) . ويوافق على أن هذا « حكم مروع » ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر أن الله عرف مصير الإنسان النهائي في المستقبل ، قبل أن يخلقه ، وأنه عرفه سافراً ، لأنه كان قد قضى به في حكمه» (١٤) . وقد يجادل آخرون من أمثال لوثر بأن المستقبل قد تحدد ، لأن الرب تنبأ به سلفاً ، وأن علمه بالغيب لا يمكن نفيه . أما كالفن فإنه يرى عكس ما تقدم ، إذ أنه يعتقد أن الرب يتنبأ بالمستقبل ، لأنه شاء هذا وقرره . والحكم بالعذاب الأبدي حكم مطلق ، وليس هناك مطهر في لاهوت كالفن ، وليس هناك منزل في منتصف الطريق ، يستطيع الإنسان بعد أن يقضى فيه بضع ملايين من السنين ، وهو يتعذب بالنار ، أن يمحو بها سيئاته ، وعلى هذا فلا محل للصلوات من أجل الموتى .

وقد يذهب بنا الظن إلى أنه لا معنى لأداء أى نوع من الصلاة ، وذلك بناء على افتراضات كالفن فما دام كل شىء قد تحدد بحكم الله ، فليس فى وسع فيض من الابتهالات أن يمحو ذرة واحدة من قدر الإنسان المحتوم . ومهما يكن من شىء ، فإن كالفن أكثر إنسانية من لاهوته ، فهو يقول لنا : فلنصل بتواضع وإيمان ، ولنسوف يتقبل الله صلواتنا ، فالصلاة وتقبلها قد سبقا فى حكمه أيضاً . ولنعبد الله بأداء صلوات دينية متواضعة ، ولكن يجب علينا ألا ننبذ القداس ، ونعتبره ادعاء من المساوسة ، ينتهكون به الحرمات بتحويل مواد دنيوية إلى جسد المسيح ودمه ، والحق أن المسيح موجود فى القربان المقدس بروحه لا بجسده ، وعبادة رقاقة الخبز المقدسة ، بدعوى أن المسيح يحل فيها بجسده ، هى وثنية محضة . واستخدام الصور المنقوشة للرب انتهاك صارخ للوصية الثانية ، وتشجيع على عبادة الأوثان ، ويجب إزالة كل الصور والتماثيل الدينية ، بل والصليب من الكنائس .

والكنيسة الحقة هى جمهور المصلين غير المنظور من الصفوة ، الأموات أو الأحياء أو الذين سيولدون . وتتكون الكنيسة المنظورة ، من كل الذين « يعترفون معنا بنفس الرب والمسيح » (١٥) ، باعتناق عقيدة ، وبجياة مثالية ، وبالإشتراك فى مراسم التعميد والعشاء الربانى (يرفض كالفن التسليم بالمراسم الأخرى) .

وليس هناك خلاص (١٦) خارج نطاق هذه الكنيسة . والدولة والكنيسة مقدستان ، وقد خلقهما الله ، لكى يعمل فى انسجام كالروح والجسد ، لمجتمع مسيحي واحد : وعلى الكنيسة أن تضع القواعد ، التى تنتظم كل التفاصيل الخاصة بالعقيدة والعبادة والأخلاق ، وعلى الدولة أن تدعم هذه القواعد (١٧) ، باعتبارها ذراع الكنيسة الطبيعى ، ويجب على السلطات الزمنية أن تكون على بصر من أن « عبادة الأوثان » (وهى ترادف إلى حد كبير الكاثوليكية فى العزف البروتستانتى) و « فضائح أخرى تمس الدين يجب

ألا تعرض وتنشر علناً بين الناس ، وأن كلمة الله الطاهرة هي الوحيدة ،
التي يجب أن يتعلمها ويتلقاها الناس (١٨) . والحكومة المثالية هي حكومة رجال
الدين ، ويجب أن نعرف بالكنيسة التي تؤمن بالإصلاح الديني ، باعتبارها
صوت الله .

وجدد كالفن جميع ادعاءات البابا بسيادة الكنيسة على الدولة ، وطالب
بها لكنيستته .

ومما يلفت النظر مدى ما بقي من تقاليد الرومان الكاثوليك وآرائهم
في لاهوت كالفن ، فهو مدين بعض الشيء لفلسفة الرواقين ، وبخاصة
سينيكا ، وبشيء لدراساته في القانون ، ولكنه اعتمد بصفة خاصة على
القديس أوغسطين ، الذي استخلص القول بالجبر من القديس بولس ،
الذي لم يعرف المسيح . وتجاهل كالفن بشدة ، مفهوم المسيح عن الرب
بأنه أب محب رحيم ، ومر في هدوء على عدد كبير من آيات الكتاب
المقدس ، التي افترضت حرية الإنسان في صياغة مصيره (٢ إصحاح بطرس
٣ : ٩ ، ١ إصحاح تيموثاوس ٢ : ٤ ، ١ إصحاح يوحنا ٢ : ٢ ،
٤ : ١٤ إلخ) .

ولم تكن عبقرية كالفن تكمن في أنه يأتي بأفكار جديدة ، ولكن في
تطوير آراء من سبقوه إلى نتائج منطقية هدامة ، والتعبير عن هذه النتائج
ببلاغة ، تضارع بلاغة أوغسطين ، وبصياغة تصميماتها العملية بمنهج ،
يقوم على التشريع الكهنوتي . وأخذ عن لوثر عقيدة التبرير أو الاختيار
بالإيمان ، ومن زونجلي التفسير الروحي للقربان المقدس ، ومن بوسر الآراء
المتناقضة عن مشيئة الله ، باعتبارها سبباً لكل ما يحدث ، والحاجة إلى ورع
عملي قوى ، باعتبارها امتحاناً وشاهداً على الاختيار . ووصلت معظم تلك
العقائد في صيغة أخف إلى التراث الكاثوليكي ، وأضفى عليها كالفن أهمية
شديدة ، ولم يعبأ بالعناصر المعوضة المخففة في عقيدة القرون الوسطى .

كان أقرب إلى القرون الوسطى من أى مفكر بين أوغسطين ودانتي .
ورفض رفضاً باتاً قبول إنشغال علماء الإنسانيات بأفضلية الدنيا ، وحول
أفكار الناس من جديد إلى العالم الآخر ، بصورة كثيفة أكثر من قبل ،
وأنكر الإصلاح الدينى فى مذهب كالفن من جديد « النهضة » .

وليس من شك فى أن لاهوتاً غير جذاب مثل هذا ، يحرز رضا
مئات الملايين من الناس ، فى سويسرة وفرنسا وسكوتلانده وانجلترا وأمريكا
الشمالية ، يبدو لأول نظرة سراً غامضاً ، ثم يبدو نوعاً من التجلى . ترى
لماذا حارب الكالفينيون والهوجنوت والمتطهرون (البيوريتان) بمثل هذه
الجرأة دفاعاً عن عجزهم ؟ ولماذا أسهمت هذه النظرية الخاصة بعجز البشر
فى تكوين بعض الشخصيات ، التى تعد من أقوى الشخصيات فى التاريخ ؟
فهل حدث هذا لأن هؤلاء المؤمنين اكتسبوا ، من الاعتقاد بأنهم الصفوة
القليلة ، قوة تفوق ما فقدوه منها ، بالتسليم بأن سلوكهم ليس له نصيب
فى تحديد مصيرهم ؟ وكان كالفن نفسه نجحولا وقوى العزم فى الوقت
نفسه ، وكان واثقاً من أنه ينتمى إلى الصفوة ، ووجد فى هذا عزاء وسلاوى ،
إلى الحد الذى دفعه إلى أن يجد « الحكيم المروع » للجبر « أمراً يودى إلى
أبجج فائدة » (١٩) : وهل أسعد بعض من اصطفوا أنفسهم أن يتدبروا فى أن
فئة قليلة كتب لها الخلاص ، وأن الكثرة الغالبة قدر عليها العذاب ؟ وليس
من شك فى أن الاعتقاد بأن الله قد اصطفاهم منح كثيراً من الأرواح
الشجاعة لمواجهة تقلبات الحياة ، والضرب فيها على غير هدى ، إلى
غير ما هدف ظاهر ، مثل ما مكنت عقيدة مماثلة الشعب اليهودى من صيانة
نفسه ، وسط محن كانت كفيلة بأن تهدم إرادة الحياة . يحق أن فكرة كالفن
عن اختيار الله لبعض الناس قد يكون مديناً بها للصيغة اليهودية فى العقيدة ،
كما تدين البروتستانتية بالكثير للعهد القديم بصفة عامة . ولا بد أن الثقة فى
الاختيار الإلهى كانت درعاً يثبت الشجاعة فى قلوب الهوجنوت ، لتحمل

آلام الحرب والمذابح ، وفي قلوب الحجاج وهم يجازفون بأنفسهم ، بحثاً
عن أوطان جديدة على شواطئ معادية .

وإذا استطاع خاطئٌ مُقَوِّمٌ أن يتشبث بهذه الثقة ، واستطاع أن يؤمن
بأن تقويمه قد هيأه له الله ، فإن في وسعه أن يقف راسخاً كالطود إلى النهاية ،
وقد رفع كالفن من قدر هذا الإحساس بالاعتزاز بالاختيار ، بأن جعل
الصفوة ، سواء كانت معدمة أم لا ، أرستقراطية وراثية : فأبناء الصفوة
يصبحون بمشيئة الله (٢٠) من الصفوة ، بطريقة آلية . وهكذا استطاع المرء
بعمل بسيط من أعمال الإيمان بالنفس ، ولو كان هذا بالتصور ، أن ينال
الفرديوس وأن ينفذ إليها . ولمثل هذه النعم الخالدة كان أى اعتراف بالعجز
صفة رابحة .

وكان أتباع كالفن في حاجة إلى مثل هذا العزاء ، لأنه علمهم وجهة
النظر السائدة في القرون الوسطى ، والتي تذهب إلى أن الحياة الدنيا ليست
إلا وادياً للبؤس والدموع ، ورحب في اغتباط بـ « تصحيح رأيهم الذى
اعتبر أن أعظم نعمة ألا يولد المرء ، وأن أعظم نعمة بعدها أن يموت فوراً ،
كما أنه لم يكن هناك شيء يتنافى مع العقل في سلوك هؤلاء الذين كانوا
ينوحون ويبكون عند ولادة أقربائهم ، ويبتهجون في وقار عند تشييع
جنازاتهم » ، ولم يأسف إلا لأن هؤلاء المتشائمين العقلاء ، وهم في الغالب
الأعمى وثنيون جهلة بالمسيح ، قد حكم عليهم بالخلود في نار جهنم (٢١) . وكان
ثمة شيء واحد يجعل الحياة محتملة - الأمل في سعادة مطردة بعد الموت ،
وقال : « إذا كانت السماء بلدنا فما الأرض سوى منى ؟ وأليست الدنيا لخدأ ،
إذا كان الرحيل عن هذا العالم معبراً إلى الحياة ؟ » (٢٢) وعلى النقيض من
صورة كالفن الشعرية نجد أنه يقدم أبلغ ما سطر من صفحات ، لا في
وصف تخيلات الجحيم ، ولكن في الحديث عن جمال السماء .

ولسوف تعاني الصفوة التقية ، دون أن تجأ بالشكوى ، كل ما في

الحياة من آلام وأشجان ، « لأنهم سوف يضعون نصب أعينهم ، ذلك اليوم الذي يستقبل فيه الرب عباده المخلصين في مذكنته الوادعة ، ويجفف كل دمة تتساقط من عيونهم ، ويكسوهم بثياب الفرح ، ويزينهم بتيجان المجد ، ويؤانسهم بمباهج ، لا يمكن التعبير عنها ، ويرفعهم إلى درجة الزمالة لحالاته ، ويدعوهم إلى . . . المشاركة في سعادته » (٢٣) . ولعل هذا كان اعتقاداً لا غنى عنه للفقراء أو التعمساء الذين ينتشرون في بقاع الأرض .

٣ - جينيف وستراسبورج : ١٥٣٦ - ٤١

بينما كان كتاب « القوانين » في المطبعة (مارس ١٥٣٦) ، قام كالفن برحلة سريعة عبر جبال الألب إلى فرارا ، وذلك متابعة لتقليد مرعى بصفة عامة ، وإن لم ينعقد الإجماع على الخسوع له (٢٤) . ولعله ذهب إلى هناك ليطلب من الدوقة البروتستانتية رينيه ، زوجة الدوق أركول الثاني ، وابنة المرحوم لويس الثاني عشر ، أن تمد يد العون إلى البروتستانت المضطهدين في فرنسا . وعينته مرشداً روحياً لها ، مدفوعة بقوة معتقداته الدينية ، وذلك عن طريق رسائل تفيض بالاحترام المتبادل ، ظلت موصولة حتى وفاته . وعاد كالفن إلى بازيل في مايو ، وجازف بالذهاب إلى نويون ليبيع شيئاً من أملاكه ، ثم انطلق مع أخيه وأخته إلى ستراسبورج . وتوقفوا لبعض الوقت في جنيف ، لأن الطريق كانت مغلقة بسبب الحرب (يوليو ١٥٣٦) .

وكانت عاصمة سويسرة الفرنسية أقدم من التاريخ نفسه . . . كانت في عصور ما قبل التاريخ مجموعة من مآوى البحيرات ، شيدت فوق أكوام ، لا يزال بعضها يرى حتى اليوم . وكانت في عهد يوليوس قيصر ملتحى لطرق التجارة عند الجسر ، الذي يخرج عنده نهر الرون مندفعاً من بحيرة ليمان ، ليضرب في فرنسا بحثاً عن البحر الأبيض المتوسط . وخضعت جنيف في العصور الوسطى لحكم أسقفها الروحي والديوي على السواء . وكان الأسقف

تختاره عادة إدارة الكاتدرائية ، التي أصبحت لذلك السبب قوة لها وزنها في المدينة ، وتلك كانت بالضرورة الحكومة التي أعادها كالفن فيما بعد ، في الشكل الذي يسير المذهب البروتستانتي . وتحرر دوقات سافوي ، التي كانت تقع خلف جبال الألب مباشرة ، من سيطرة إدارة الكاتدرائية في الثامن الخامس عشر ، ورفقوا إلى منصب الأسقفية الرجال الذين أفادت منهم دوقية سافوي ، وأسلموا أنفسهم إلى ملذات الحياة الدنيا خوفاً من ألا يكون هناك عالم آخر . وفسدت الحكومة الأسقفية ، التي قدر لها أن تكون يوماً من أحسن الحكومات ، كما انحدرت أخلاق رجال الدين ، الذين يعملون تحت إمرتها . ووافق أحد القساوسة على تنفيذ أمر صدر له بطرد محظيته ، بشرط أن يتجرد زملاؤه من رجال الدين مثله من نخوتهم ، ورجعت كفة النخوة (٢٥) .

وفي لطاق هذا الحكم الكهنوتي الدوقى ، كونت العائلات الكبرى يجيزيف مجلساً من ستين عضواً ، لإصدار القوانين البلدية ، واختار المجلس أربعة من المأمورين لتنفيذ هذه القوانين ، وكان المجلس يجتمع عادة في مقر الأسقف الكاتدرائية القديس بطرس ، ولم يكن هناك خط فاصل بين الاختصاص الدينى والاختصاص المدنى ، فبينما كان الأسقف يسك النقود ويقود الجيش ، كان المجلس يضع الضوابط التي تحكم الأخلاق ، ويصدر قرارات الحرمان ، ويرخص للبغايا بالعمل . وكما جرى العرف في ترير وماينز وكولونيا ، كان الأسقف أيضاً أميراً من أمراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ومن الطبيعى أنه أخذ على عاتقه القيام بوظائف ، يجد الأسقف نفسه فى حل منها الآن . وسعى بعض الزعماء المدنيين ، برئاسة فرانسوا دى بونيفار ، إلى تحرير المدينة من نير الساطة الأسقفية والسلطة الدوقية معاً . وعقد هؤلاء الوطنيون حلفاً بين فرايبورج الكاثوليكية وبرن البروتستانتية لدعم هذه الحركة . وأطلق على المنضمين لهذا الحلف الاصطلاح الألماني Eidgenossen أى رفقاء القسم وهو لفظ معناه المتحالفون ، وحرفه

الفرنسيون إلى « هوجنوت . ولا أن حل عام ١٥٢٠ حتى أصبح زعماء مدينة جينيف من رجال الأعمال في الغالب الأعم ، لأنها كانت على النقيض من فينبرج مدينة تجارية ، تتوسط في التجارة بين سويسرة في الشمال وإيطاليا في الجنوب وفرنسا في الغرب . وألف الأوساط من أهالي مدينة جينيف مجلساً أكبر ، يتكون من مائتي عضو ، واختار هؤلاء مجلساً أصغر يتكون من خمسة وعشرين عضواً ، وهو المجلس الذي أصبح الحاكم الحقيقي للبلدية ، وكان يزدرى سلطة الأسقف وسلطة الدوق على السواء . وأعلن الأسقف أن المدينة في حالة تمرد ، واستدعى الفرق الدوقية لمساعدته ، فما كان من هذه الفرق إلا أن استولت على بونيفار ، وسجنته في قصر شياون ، وخف جيش مدينة برن إلى نجدة مدينة جينيف المحاصرة ، وهزمت قوات الدوق ، وتشتت شملها ، وفر الأسقف إلى أنيسي ، وتحرر بطل الشاعر بيرون من غياهب سجنه . وغضب المجلس الأكبر من مساعدة رجال الدين لدوقية سافوى ، فأعلن عقيدة الإصلاح الديني ، وتولى اختصاص رجال الدين وولاية السلطة المدنية في المدينة (١٥٣٦) ، قبل وصول كالفن بشهرين . وكان البطل العقيدى لهذه الثورة هو ويليام فاريل . وكان مثل لوثر ، ورعاً جداً في شبابه . وأقبل إلى باريس متأثراً بجاك ليفيفر ديتابل ، الذي أزعجت ترجمته للكتاب المقدس وتفسيره له تزلزلت فاريل ، لأنه لم يجد أي أثر في نصوص الكتاب المقدس للبابوات والأساقفة وصكوك الغفران والمطهر والشعائر السبع والقداس والعزوبة المفروضة على رجال الكهنوت وعبادة مريم أو القديسين . وأنف من رسالة رجال الكهنوت ، فانطلق بجول من مدينة إلى مدينة في فرنسا وسويسرة ، بصفته واعظاً مستقلاً ، وكان ضئيل القامة ضعيف البنية جهورى الصوت قوى الروح ، له عينان متقدتان تبرقان في وجهه الشاحب ، ولحية حمراء كاللهب ، وندد بالبابا ووصفه بأنه خصم للمسيحية ، كما ندد بالقداس ، واعتبره انتهاكاً للحرمة المقدسة ، وبأيقونات الكنيسة باعتبارها من الأوثان ، التي يجب أن تحطم ، وبدأ عام

١٥٣٢ الوعظ في جنيف ، وقبض عليه عملاء الأسقف ، الذي رأى أن يلقى « الكاب اللوثري » في نهر الرون ، فتوسط المأمورون وهرب فاريل ، بعد أن أصيب ببضع سحجات في رأسه ، وتلوث سترته بشيء من البصاق . وكسب إلى صنفه مجلس الخمسة والعشرين ، وأثار بمساعدة بينر فيريه وأبطوان فرومان الناس ، ونال الكثير من التأييد الشعبي ، مما دفع كل رجال الدين الكاثوليكية تقريباً إلى الرحيل . وأصدر المجلس الصغير يوم ٢١ مايو عام ١٥٣٦ مرسوماً بإلغاء القداس ، وإزالة كل التماثيل ومخالفات القديسين من الكنائس ، وحولت ممتلكات الكنيسة للوفاء باحتياجات البروتستانت الدينية ، وإلى وجوه البر والتعليم ، وجعل التعليم إجبارياً وبالجان ، وسيطر نظام أخلاقي صارم سيطرة القانون .

ودعى المواطنون لأن يقسموا على الولاء للإنجيل ، أما الذين رفضوا حضور الصلوات طبقاً لمبادئ الإصلاح الديني فقد نفوا من البلاد (٢٦) . تلك هي جنيف التي أقبل إليها كالفن .

وكان فاريل وقتذاك في السابعة والأربعين من عمره ، وعلى الرغم من أنه قدر عليه أن يعيش عاماً بعد كالفن ، فإنه رأى في الشاب الصارم الفصيح . الذي يصغره بعشرين عاماً ، الرجل الذي تشتد الحاجة إليه لدعم الإصلاح الديني ودفع عجلته إلى الأمام . وكان كالفن متردداً ، إذ كان قد رسم لنفسه حياة ، يقضيها في البحث العلمي والكتابة ، وكان يحس بالطمأنينة مع الله أكثر مما يحس بها مع الناس ، ولكن فاريل ، بطلعته التي تشبه طلعة نبي راعد من أنبياء الإنجيل ، هدد بأن يصب عليه لعنة الله ، إذا آثر دراساته الخاصة على التبشير الصعب والخطير بالكلمة التي لم يتطرق إليها الوهن .

وأذعن كالفن . ووافق المجلس ومشيخة الكنيسة ، وبدأ خدمته المدينة . دون التمسك بأي رسامة أخرى - بأن ألقى في كنيسة القديس بطرس

أولى خطبه العديدة عن رسائل القديس بولس . وكان تأثير بولس في كل مكان ، يدين بالبروتستانتية ، اللهم إلا بين الطوائف المتطرفة من الناحية الاجتماعية ، يحجب تأثير بطرس المؤسس الذائع الصيت لكرسى البابوية الروماني .

وفي أكتوبر سافر كالفن برفقة فاريل وفيريه إلى لوزان ، واضطلع بدور صغير في الجدل الشهير الذي كسب المدينة إلى صف المعسكر البروتستانتي ، ولدى العودة إلى جينيف شرع كهان أبرشية القديس بطرس ، الكبار والصغار ، في هداية أهالي جينيف لله . وتقبلوا بإخلاص الإنجيل ، باعتباره تنزيلاً من لدن الله ، وشعروا بأن عليهم التزاماً لا فكاك منه لدعم شريعته . وراعهم أن وجدوا أن كثيراً من الناس قد أسلموا أنفسهم للغناء والرقص وما أشبه من مظاهر الطرب ، وفضلاً عن هذا فان بعضهم كان يقامر أو يشرب إلى درجة السكر البين ، أو يقارف الزنا .

وكان قسم بأكمله من المدينة تحتله بغايا ، تحكهن ملكة الماخور ، وكان قبول هذا الموقف بالبشر من فاريل السريع الغضب ، وكالفن الحى الضمير ، بمثابة خيانة للرب .

وأصدر فاريل « إقراراً بالعقيدة والنظام » ، كما أصدر كالفن « عظة » سهلة الفهم ، أقرها المجلس الكبير (نوفمبر سنة ١٥٣٦) ، لكي يستعيدا الأساس الديني لأخلاقيات مثمرة . وكان المواطنون الذين يصرون على مخالفة القانون الأخلاقي ، يحرمون من الغفران ، وينفون إلى خارج البلاد ، وأصدر المجلس في يوليه عام ١٥٣٧ أمراً لجميع المواطنين ، بأن يذهبوا إلى كنيسة القديس بطرس ، وأن يقسموا على الولاء لإقرار فاريل .

وكان أى مظهر ينم على الكاثوليكية - مثل عمل مسبحة ، أو الاعتزاز بإحدى الخلفات المقدسة ، أو اعتبار عيد قديس يوماً مقدساً ، يعرض من يبد منه للعقاب . وسجنت النساء لارتدائهن قبعات غير لائقة . وكان بونيفار

جد سعيد ، بما ينعم به من إباحية ، ولكنه حذر بأن يمتنع عن ممارسة أساليبه
الداعرة . ووصفد المقامرون بالأغلال ، وسيق مقترفو الزنا في الشوارع
إلى المنفى .

ولما كان أهالي جينيف قد تعودوا على الخضوع لحكم كنسى ، كان
يقوم على نظام أخلاقي ، يتسم بالرفق ، فرضته كاثوليكية خففت من
شدتها الأقاليم الجنوبية ، فإنهم قاوموا التحلل بالحديد من الواجبات ، ونظم
الوطنيون ، الذين حرروا المدينة من الأسقف والدوق ، أنفسهم من جديد ،
لتحريرها من قساوستها المتزمتين ، وانضمت طائفة أخرى تطالب بحرية
الضمير والعبادة ، ومن ثم أطلقت على نفسها اسم المتحررين أو الأحرار
إلى الوطنيين والكاثوليك الذين يمارسون شعيرتهم في الخفاء ، وحصل
هذا الائتلاف في انتخابات ٣ فبراير عام ١٥٣٨ على أغلبية في المجلس
الكبير . وأبلغ المجلس الجديد التساوسة أن عليهم أن يتعدوا عن السياسة ،
فندد كالفن وفاريل بالمجلس ، ورفضوا أن يناولا العشاء الرباني حتى
تتوأم المدينة الثائرة مع النظام المرتكز على القسم ، فما كان من المجلس إلا أن
خاع كاهن الأبرشية (٢٣ أبريل) ، وأمرها بمغادرة المدينة في خلال
ثلاثة أيام . واحتفل الناس بطردهما وسط مظاهر التهليل والابتهاج (٢٧) .
ولبي فاريل دعوة إلى نويشاتل ، وهناك ظل يقدم عظاته إلى آخر يوم في
حياته (١٥٦٥) ، وأقيم هناك نصب تذكاري تخليداً لذكراه .

وذهب كالفن إلى شتراسبورج ، وكانت وقتذاك مدينة حرة لا تخضع
إلا للإمبراطور ، وتدير شؤونها الدينية كنيسة الغرباء ، وجماعة المصلين
فيها بروتستانت ، جاءوا من فرنسا بصفة خاصة . ولكي يدبر أموره بمبلغ
الأثنين وخمسين جيلدر (١٣٠٠ دولار) ، الذي كانت تدفعه له الكنيسة
كل عام ، باع مكتبته ، وقبل عنده نزلاء من الطلبة . ووجد أن العزوبة
لا تلائمه في موقفه هذا ، فطلب من فاريل وبوسر أن يبحثا له عن زوجة ،

وقدم لهما بياناً بالصفات التي ينشدها ، وقال : « لست من هؤلاء العشاق المحبولين ، الذين يفتنهم وجه جميل لامرأة ، فيتجاوزون أيضاً عن أخطائها ، وهاهو الجمال الذي يغريني - أن تكون عفيفة كريمة غير متأنقة ، اقتصادية صبوراً حريصة على صحتي » (٢٨) .

وبعد أن قام بمحاولتين فاشلتين تزوج (١٥٤٠) من إيديليت دي بور ، وهي أرملة فقيرة لها سبعة أطفال ، فأنجبت منه ابناً واحداً مات في سن الطفولة . وعندما قضت نحبها (١٥٤٩) كتب يرثها برقة خاصة كانت تغلفها قسوته الظاهرة . وعاش وحيداً في بيته الخمسة عشر عاماً المتبقية من حياته .

وبينما كان يشقى في شتراسبورج ، تحركت الأحداث في جنيف . وتشجع الأسقف المنفي عندما علم بطرد فاريل وكالفن ، ووضع خطة لعودة مظفرة إلى كاتدرائيته ، وقام بخطوة مبدئية ، فأقنع اياكوبو سادوليتو بأن يكتب « رسالة إلى أهالي جنيف » ، يحثهم فيها على أن يستأنفوا عباداتهم ، طبقاً للعقيدة الكاثوليكية « (١٥٣٩) . وكان سادوليتو رجلاً مهندياً يتمتع بخلق قويم ، لم يعهده الناس في كاردينال أو عالم بالإنسانيات ، وكان قد أشار من قبل على البابوية أن تعالج انشقاق البروتستانت برفق ، واستقبل في مدينة كارينتراس فيما بعد هراطقة والدانيين فارين من المذبحة ، وأسبغ عليهم حمايته (١٥٤٥) ، وكتب رسالة بلاتينية رفيعة ، تعلمها من بمبو المعصوم ، وجهها إلى إخوته الأعضاء المحبوبين ، حکام جنيف وشيوخها والمواطنين فيها ، وتألّف الرسالة من عشرين صفحة ، تحفل بالمجاملات الدبلوماسية والترغيب اللاهوتي ، ولاحظ انقسام البروتستانت إلى طوائف متحاربة يتزعمها ، كما يدعى ، رجال ماكرون ، يتشوفون إلى السلطة ، وقارن هذا بوحدة الكنيسة الرومانية ، التي دامت قرناً طويلاً ، وتسأل هل من المحتمل أن يكون الحق مع تلك الأحزاب المتعارضة أكثر منه مع عقيدة كاثوليكية أثمرتها خيرة عصور واحتشاد ذكاء المجالس

الكنسية . ونختم رسالته بأن عرض على مدينة جينيف ، أنه على استعداد للقيام بأية خدمة في مقدوره .

وشكره المجلس على تحيته له ، ووعدوه بالمزيد من الاستجابة لمطالبه ، بيد أنه لم يكن في جينيف أحد ، يأخذ على عاتقه ، أن يرفع السيف في وجه عالم الإنسانيات المهدب ، أو يجاريه في لاتيניתه . وفي غضون ذلك طلب عدد من المواطنين أن يتحللوا من قسمهم ، على أن يؤيدوا إقرار العقيدة والنظام ، ونحيل للناس فترة ما أن المدينة سوف تعود إلى اعتناق الكاثوليكية . وكان كالفن مدركاً للموقف ، فخف للرد على الكاردينال ، وحشد كل ما يملك من طاقة ذهنية ، وشرع قلمه للدفاع عن الإصلاح الديني . وواجه الدمثة باللطف ، والبلاغة بالبلاغة ، ولكنه لم يتنازل قيد أنملة عن أى مبدأ من مبادئ لاهوته ، واحتج ضد إقحامه في النزاع ، بدعوى أنه إنما ثار مدفوعاً بطموح شخصي ، فقد كان في وسعه أن ينعم بالمزيد من الطائنية ، لو ظل محافظاً على العقيدة . وسلم بأن الكنيسة الكاثوليكية تستند إلى أساس إلهي ، ولكنه هاجمها ، وقال إن مثالب بابوات عصر النهضة قد أثبتت استيلاء المناهض للمسيحية على عرش البابوية . واعترض على حكمة المجالس الكنسية بحكمة الكتاب المقدس ، التي كان سادوليتو قد تجاهلها أو كاد ، وأسف لأن فساد الكنيسة أدى إلى الانشقاق والانقسام ، ولكن القضاء على الشرور لا يتم إلا على هذا النحو . وإذا ما تعاون الكاثوليكية والبروتستانت الآن ، لتطهير العقيدة والشعيرة والعاملين بكل الكنائس المسيحية ، فإن جزاءهم وحده أبدية في السماء مع المسيح . وكان خطاباً قوياً ولعله أغفل الفضائل العارضة لبابوات عصر النهضة ؛ إلا أن عباراته صيغت بأسلوب رصين ، لا يخلو من المجاملة ، وهو أمر نادر في مناظرات هذا العهد .

وعند ما اطلع عليه لوثر في فيتنبرج ، رحب به على أساس أنه سيقضي تماماً على الكاردينال ، وهتف قائلاً : « لشده ما يطربني أن يهني الله أناساً . . . ينهون الحرب ، التي بدأتها ضد المناهض للمسيحية » (٢٩) . وتأثر

مجلس جنيف إلى حد أنه أمر بطبع الخطابين على نفقة المدينة (١٥٤٠) ،
وبدأ يتساءل ما إذا كان ، بنفيه كالفرن ، قد فقد أقدار رجل في الإصلاح
الديني السويسري .

وغدت الشك عوامل أخرى . فقد برهن كاهنا الأبرشية ،
الليدان حلا محل فاريل وكالفرن ، على أنهما لا يصلحان للوعظ ، وينتقران
إلى النظام . وفقد الجمهور احترامه لهما ، وعاد إلى الأخلاق المنحاة ، التي
كانت سائدة في الأيام السابقة للإصلاح الديني . وتفشيت المقامرة والسكر ،
واشتدت الحلبة في الشوارع . وانتشر الزنا ، وكان الناس يرفعون عقائدهم
علناً بالأغاني الداعرة . وانطلق أشخاص في الشوارع ، عراة كما ولدتهم
أمهاتهم (٣٠) . ولقد حكم بالإعدام على واحد من المأمورين الأربعة ، الذين
تزعّموا حركة طرد فاريل وكالفرن . وذلك لارتكابه جريمة قتل ،
وعلى آخر لارتكابه جريمة تزوير . وعلى ثالث بتهمة الخيانة لوطن . أما
الرابع فقد مات . وهو يحاول الفرار من الاعتقال . ولا بد أن رجال
الأعمال ، الذين كانوا يسيطرون على المجلس . قد ساءهم هذا الإخلال
بالنظام . باعتباره موقفاً للتجارة . ولم يكن المجلس نفسه ميالاً إلى أن يخل
محلّه أسقف ، يستعبد سلاطانه . وربما يصدر قراراً بجرمانهم من غفران
الكنيسة . وهكذا خطرت فكرة دعوة كالفرن لغالبية الأعضاء شيئاً فشيئاً .
وفي يوم أول مايو ألغى المجلس قرار النفي ، وأعلن أن فاريل وكالفرن رجلا
جديران بالاحترام . وأرسل مندوب إثر مندوب إلى شتراسبورج ، لإقناع
كالفرن باستئناف عمله في الأبرشية بجينيف . وغفر فاريل للمدينة لأنها لم ترسل
له دعوة مماثلة . وفي كرم نبيل انضم إلى المندوبين لحث كالفرن على العودة .
ولكن كالفرن كان قد عرف كثيراً من الأصدقاء في شتراسبورج . وشعر
بأن عليه التزامات هناك ، ورأى أنه لن يجد أمامه في جينيف إلا الخصام .
وقال : « ليس في العالم . مكان أخشاه أكثر منها » . ووافق على القيام بزيارة
للمدينة فحسب . وعند ما وصل إليها (١٣ سبتمبر سنة ١٥٤١) قوبل

بكثير من مظاهر التكرم ، وقدمت له عشرات الاعتذارات ، وبذلت له الكثير من الوعود ، بالتعاون معه في توطيد النظام ، والعمل بالإنجيل فلم يطاوعه قلبه على الرفض ، وكتب في ١٦ سبتمبر إلى فاريل يقول : « لقد تحققت أمنيتك . أنا هنا راسخ كالطود . وأسأل الله أن يمنحنا بركته » (٢١) .

٤ - مدينة الله

كان سلوك كالفن في السنوات الأولى من دعوته ، يتسم بالاعتدال والتواضع فمكسب إلى صفة الجميع ، إلا أقلية ضئيلة ، وعين ثمانية من مساعدي القسس للعمل تحت رئاسته لتقوم الخدمة الدينية في كنيسة القديس بطرس وغيرها من كنائس المدينة ، وكان يعمل مدة تتراوح بين اثني عشرة ساعة وثمانى عشرة ساعة كل يوم ، واعظاً ومديراً وأستاذاً لللاهوت ، ومشرفاً على الكنائس والمدارس ، ومستشاراً للمجالس البلدية ، وضابطاً للأخلاق العامة ، ومنظماً للطقوس الدينية في الكنيسة . وعكف في غضون ذلك على إضافة فصول لكتابه « القوانين » ، وكتب تعليقات على الكتاب المقدس ، وحافظ على كتابة رسائل تأتي من حيث القيمة بعد رسائل أرازموس ، وإن كانت تفوقها تأثيراً . . . ولم يكن ينام إلا قليلاً ، ويأكل قليلاً ، ويصوم كثيراً . وعجب خلفه وكاتب سيرته ، تيودور دى ميز ، كيف استطاع ذلك الرجل الضئيل الجسم ، أن يحمل مثل هذا العبء الثقيل المتنوع .

وكان أول عمل قام به هو إعادة تنظيم الكنيسة ، التي تناوّلها الإصلاح ، وعين المجلس الصغير ، بناء على طلبه ، وعقب عودته لفترة قصيرة ، لجنة من خمسة من رجال الدين ، وستة من أعضاء المجلس ، يرأسهم كالفن ، لصياغة قانون كنسى جديد . وفي اليوم الثانى من يناير عام ١٥٤٢ أجاز المجلس القوانين الكنسية ، التي لا تزال الكنائس التي تناوّلها الإصلاح والمشيخية في أوروبا وأمريكا تقبل معالمها الجوهرية . وقسمت الخدمة الدينية على كهان أبرشيات ومعلمين ، شيوخ كنيسة من العلمانيين وشمامسة ٥

وألف كهان الأبرشيات في جينيف « الجماعة المبعجلة » ، التي حكمت الكنيسة ، ودربت المرشحين للخدمة الدينية . ولم يسمح كذلك لأحد بالوعظ في جينيف ، دون أن يخول ذلك من الجماعة ، وكان الأمر يتطلب أيضاً موافقة مجلس المدينة وجماعة المصلين ، إلا أن الرسامات الأسقفية - وتنصيب الأساقفة - كانت محظورة .

وأصبح القساوسة الجدد ، تحت رئاسة كالفن ، أقوى منهم في أي نظام للقساوسة عرف منذ عهد إسرائيل القديمة ، وذلك في الوقت الذي لم يدعوا فيه قط أنهم وهبوا القوى الحارقة للقساوسة الكاثوليك ، وعلى الرغم من أنهم أصابوا على أنفسهم حكماً بأنهم لا يصلحون للوظيفة المدنية . وقال كالفن إن القانون الحقيقي للدولة مسيحية يجب أن يكون هو الكتاب المقدس ، وأن القساوسة هم المفسرون الحقيقيون لذلك القانون ، وأن الحكومات المدنية يجب أن تخضع لهذا القانون ، وأن تدعمه كما يفسره رجال الدين . ولعل الرجال المتمرسين في المجالس قد راودتهم بعض الشكوك ، في هذه النقاط ، ولكن يبدو أنهم شعروا بأن النظام الاجتماعي أجدى للاقتصاد ، ومن هنا فإن بعض الدعاوى الكنسية يحسن أن تترك مؤقتاً دون اعتراض ، والظاهر أن حكومة رجال الدين ظلت تسيطر على حكومة أقلية من التجار ورجال الأعمال خلال ربع قرن عجيب .

ومارس رجال الدين سلطتهم على حياة أهالي جينيف من خلال مجمع للكرادلة أو مشيخية مكونة من خمسة من كهنة الأبرشية واثني عشر شيخاً للكنيسة من العلمانيين ، والجميع يختارهم المجلس .

وبينا كان كهنة الأبرشية يتمسكون بحقهم في المنصب ، من خلال خدمتهم الدينية ، وشيوخ الكنيسة يظالون في مناصبهم عاماً واحداً فقط ، فإن مجمع الكرادلة كان يحكمه أعضاؤه من رجال الدين في أمور لا تمس الأعمال بصورة جوهرية . وأدعى لنفسه الحق في تنظيم العبادة الدينية وفرض السلوك الأخلاقي على كل ساكن ، وأرسل قسيساً وشيخاً للكنيسة ، لكن

يزوراً سنوياً كل بيت وكل أسرة . وكان له الحق في استدعاء أى شخص للمثول أمامه ، لاختباره ، وكان في وسعه زجر الآثمين ، أو حرمانهم من الغفران علناً ، وكان يستطيع أن يعتمد على المجلس في أن ينفي عن المدينة من أصدر عليهم مجمع الكرادلة قراراً بالحرمان من غفران الكنيسة . وكان كالفن يقبض على زمام السلطة ، باعتباره رئيساً لهذا المجمع . وكان صوته أقوى الأصوات تأثيراً في جينيف ، من عام ١٥٤١ حتى وفاته في عام ١٥٦٤ . ولم يكن حكمه المطلق يستند إلى القانون أو سنة ، ولكنه كان يعتمد على الإرادة والخلق . ولقد أضفت عليه قوة إيمانه برسالته ، وكمال إخلاصه لواجباته ، قوة لم يستطيع أحد أن ينجح في مقاومتها ولو أن هيلدبراند بعث من قبره لطرب أيما طرب لهذا الانتصار الواضح للكنيسة على الدولة .

هكذا خول رجال الدين سلطات ، أتاحت لهم أن ينظموا أولاً العبادات . « على جميع أفراد الأسرة أن يحضروا العظات يوم الأحد ، ما عدا من يتركون في البيت ، لرعاية الأطفال أو الماشية . وإذا كان ثمة وعظ في أيام الأسبوع ، فعلى كل من يستطيع الحضور أن يجيء » « كان كالفن يلقي عظاته ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع » « وإذا جاء أحد بعد ابتداء العظة فيلنذر . وإذا لم يقوم نفسه ، فليدفع غرامة قدرها ثلاثة فلسات » (٣٢) . وليس لأحد أن يعنى من أداء الصلوات البروتستانتية ، بحجة أنه يعتنق عقيدة دينية مخالفة ، أو خاصة ، وكان كالفن مدققاً ، مثل أى بابا ، في رفضه الفردية في العقيدة . ولقد رفض أعظم مشرع للبروتستانتية ذلك المبدأ الخاص بالحكم الفردى ، الذى كان الدين الجديد قد بدأه . كان قد رأى انقسام الإصلاح الدينى إلى مائة طائفة ، وعرف مسبقاً أكثر من هذا ، وقرر ألا يسمح بوجود طائفة منها في جينيف . إن هناك هيئة من رجال الدين العلماء ، تصوغ عقيدة رسمية ، وعلى الذين لا يقبلون اعتناقها من أهالى جينيف ، أن يبحثوا لهم من مواطن أخرى . وكان التغيب في إصرار عن حضور الصلوات البروتستانتية ، أو الاستمرار في رفض تناول القربان المقدس ، من الجرائم

التي يعاقب عليها القانون . وأصبحت الهرطقة من جديد إهانة للرب ،
وخيانة للدولة ، وكل من ثبت عليه يعاقب بالإعدام . كما أصبحت
الكاثوليكية التي بشرت بهذا الحكم على الهرطقة بدورها هرطقة .

وبين عامي ١٥٤٢ و ١٥٦٤ نفذ حكم الإعدام في ثمانية وخمسين شخصاً ،
ونفي ستة وسبعون ، بسبب مخالفتهم للقانون الجديد . وكان السحر هنا
كما في أي مكان آخر جريمة يعاقب من يزاوله بالإعدام ، ولقد أرسل إلى
سارية الإحراق في عام واحد ، وبناء على ما أشار به مجمع الكرادلة ،
أربع عشرة سيادة ، قيل أنهم من الساحرات ، بتهمة إغرائهن للشيطان ،
بأن يصيب جينيف بوباء الطاعون (٢٣) .

ولم يميز مجمع الكرادلة إلا قليلاً بين الدين والأخلاق . . . كان السلوك
الأخلاقي ، ومثله في ذلك مثل العقيدة الدينية ، يجب أن يلتزم بعناية ، ذلك
لأن حسن السلوك هو الهدف من العقيدة الصحيحة . وكان كالفن ، وهو
رجل حازم قوى المراسم ، يحلم بمجتمع يدين بنظام صارم ، إلى حد تبرهن
فضائله على لاهوته ، وتجلى بالعار الكاثوليكية ، التي أثمرت حياة النرف
والانحلال في روما ، أو تسامحت فيهما . ولا بد أن يكون النظام العمود
الفقرى للشخصية ، وأن يمكنها من أن ترقى بنفسها ، من وحدة الفطرة
البشرية ، إلى استقامة الإنسان الذي قهر شهوات نفسه . يجب أن يكون
رجال الدين قدوة لغيرهم ، بسلوكهم وإدراكهم الحسى . ولهم أن يتزوجوا
وأن ينجبوا ، وعليهم أن يمتنعوا عن الصيد والمقامرة واللهو والتجارة
زضروب التسلية الزمنية ، وأن يقبلوا أن يقوم رؤسائهم من رجال الكنيسة
بجولة تفتيشية سنوية ، وأن يتقصوا عن أخلاقهم .

ولتنظيم سلوك الجماهير أقيم نظام ، يعتمد على الزيارات المنزلية ،
يتلخص في أن أحد شيوخ الكنيسة أو غيره ، كان يزور سنوياً كل بيت عين
له في الحى ، ويسأل السكان عن مراحل حياتهم كلها . وانضم مجمع الكرادلة

والخيل إلى إقرار تحريم المقامرة ولعب الورق والتجديف والسكر والتردد على الحانات والرقص (الذي كان وقتذاك يعنى بالقبلات والأحضان) ، والأغاني الماجنة أو الخارجة على الدين ، والإفراط في اللهو ، والبذخ في العيش ، والتبذل في اللبس . وحدد القانون اللون المسموح به في الملابس ومقدارها ، وعدد الأطباق المسموح بها في الوجبة الواحدة . وكانت الحلوى والخمرات تقابل بالتجهم . وسجنت امرأة ، لأنها صفت شعرها إلى ارتفاع يتنافى مع الأدب (٣١) . واقتصرت الحفلات المسرحية على التمثيليات الدينية ثم منعت هذه أيضاً . وكان الأطفال لا يسمون بأسماء القديسين - الواردة في التقويم الكاثوليكي ، ولكن فضل أن يطلق عليهم أسماء شخصيات ، ذكرت في العهد القديم ، واشتغل والد عنيد أربعة أيام في السجن ، لأنه أصر على تسمية ابنه كلود بدلا من أبراهام (٣٥) . وفرضت الرقابة على المطبوعات ، طبقاً لسوابق كاثوليكية وعلمانية ، وتوسع فيها (١٥٦٠) : فقد حُظر تداول كتب تناول عقيدة دينية خاطئة ، أو لها نزعة تتنافى مع الخلق القويم ، وقدر لمقالات مونتاني وكتاب « أميل » لروسو أن تقع تحت طائلة هذا الحظر . وكان الحديث عن كالفن أو رجال الدين بازدراء يعد جريمة (٣٦) ، وأول مخالفة لهذه القوانين كانت تعاقب بالزجر ، أما المخالفة التالية فكانت تعاقب بالغرامات ، والإصرار على المخالفة بالسجن أو النفي . أما الفسق فكان مرتكبه يعاقب بالنفي أو بالموت غرقاً ، ومن يرتكب جريمة الزنا أو الكفر أو عبادة الأوثان يعاقب بالإعدام . وفي مثل خارج على القياس قطعت رأس طفل ، لأنه ضرب والديه (٣٧) . وفي عامي ١٥٥٨ - ٥٩ رفعت ٤١٤ دعوى بسبب جرائم أخلاقية ، وبين عامي ١٥٤٢ و ١٥٥٦ أقصى عن البلاد ستة وسبعون شخصاً ، ونفذ حكم الإعدام في ثمانية وخمسين ، وكان التعداد الكلي لسكان مدينة جينيف وقتذاك حوالي ٢٠,٠٠٠ نسمة (٣٨) . وكثيراً ما استخدم التعذيب وسيلة للحصول على اعترافات أو دليل ، كما كان يحدث في كل مكان في القرن السادس عشر .

وامتد التنظيم إلى التعليم والمجتمع وإلى الحياة الاقتصادية ، وأسس كالفن
مدارس وأكاديمية ، وبُحث في أرجاء أوروبا عن مدرسين للغات اللاتينية
واليونانية والعبرية وللاهوت ، ودرب قساوسة من الشبان حملوا إنجيله إلى
فرنسا وهولندا وسكوتلاندا وإنجلترا ، بكل ما اتصف به المبشرون اليسوعيون
من حمية وإخلاص في آسيا ، وأرسلت مدينة جينيف في خلال أحد عشر
عاماً (١٥٥٥ - ٦٦) ١٦١ مبعوثاً من أمثال هؤلاء إلى فرنسا ، أنشد الكثير
منهم المزامير الهوجنوتية ، وهم يتعرضون للاستشهاد ، ورأى كالفن أن
التقسيم الطبقي أمر طبيعي ، وأسبغ تشريعه الحماية على الرتبة والمنصب ،
بفرض نوع من اللباس ، ووضع حدود لنشاط كل طبقة (٢٩) . كان على كل
شخص أن يتقبل وضعه في المجتمع ، وأن يؤدي واجباته ، دون حسد
لن هم خير منه ، أو شكوى من سوء حظه . وحُظر التسول ، واستبدل ،
بالإحسان دون أي تمييز ، إدارة جماعية ، تتسم بالعناية للمساعدات التي
تقدم للتفريج عن الفقراء .

والتزم مذهب كالفن بالعمل الشاق والرصانة والاجتهاد والاعتدال في
النفقة ، وأصبح الاقتصاد قانوناً دينياً ، يحلل بالغار رأس المعتصم به ، ولعل
ذلك هو الذي أسهم في تطوير ما فطر عليه رجل الأعمال البروتستانتي
الحديث ، من المثابرة على العمل ، ولقد بولغ في تأكيد أهمية (٤٠) هذه الحلاقة ،
إذ كانت الرأسمالية قد نمت في فلورنسا والفلاندرز الكاثوليكيين قبل
الإصلاح الديني إلى درجة أكبر مما حدث في جينيف مدينة كالفن . ورفض
كالفن المذهب الفردي في الاقتصاديات كما رفضه في الدين والأخلاق .

وكانت وحدة المجتمع ، في رأيه ليست الفرد الحر (الذي بدأ به لوثر
ثورته) ، ولكن مجتمع دولة المدينة ، التي ارتبط أعضاؤها بها بقانون
حازم ونظام صارم . وكتب يقول ، ليس لأحد من أعضاء الجماعة
المسيحية أن يحتفظ بمواهبه لنفسه ، وأن يقصرها على استعماله الخاص ، بل

يجب أن يشرك فيها زملاءه من الأعضاء ، وليس له أن يجني فائدة إلا من تلك الأشياء ، التي تنشأ من النفع العام للهيئة ، باعتبارها كلاً لا يتجزأ» (٤١) «ولم يكن يظهر أى عطف نحو المضاربة لجمع المال أو تكديسه بصورة جائزة» (٤٢) ، وسمح بتقاضى فائدة على القروض مثل بعض أصحاب النظريات الكاثوليكية فى أواخر القرون الوسطى ، ولكنه حدد الفائدة نظرياً بخمسة فى المائة ، وحث على منح قروض ، دون تقاضى أية فائدة ، إلى الأفراد المعوزين أو الدولة (٤٣) . وعاقب مجمع الكرادلة ، بموافقه ، المحتكرين والمستغلين والمقرضين الذين يتقاضون فوائد باهظة ، وحدد المجمع أسعار الطعام والملابس وأجور العمليات الجراحية ، وضم التجار الذين غشوا عملاءهم أو فرض عليهم غرامات ، والبائعين المطففين الذين إذا كالأول للناس أو وزنوا لهم ينقصون ، وبائعى الأقمشة الذين يختلسون من الأثواب (٤٤) . وكان النظام أحياناً يسير نحو اشتراكية الدولة . فقد أسست الجماعة الموقرة مصرفاً وأدارت بعض الصناعات (٤٥) .

وإذا وضعنا فى أذهاننا هذه العوامل المقيدة ، فإننا قد نسلم بوجود اتفاق ودى صامت ومتزايد بين مذهب كالفن والعميل والتجارة ، وما كان فى وسع كالفن أن يحتفظ طويلاً بزعامته ، لو أنه عاق النمو التجارى فى مدينة تعتمد فى حياتها على التجارة . وهياً نفسه للموقف ، وسمح بتقاضى فائدة قدرها عشرة فى المائة ، وأوصى بمنح قروض للدولة ، لتمويل صناعة خاصة ، تدخل لأول مرة ، أو للتوسع فيها ، كما حدث فى صناعة النسيج أو فى إنتاج الحرير . ومالت المراكز التجارية ، مثل أنتورب وأمستردام ولندن تواءماً للدين الحديد ، الذى تقبل الاقتصاد الحديث . وطوى مذهب كالفن فى أحضان الطبقات الوسطى ونما بنموهم .

وماذا أسفر عنه حكم كالفن ؟ لا بد أن الصعوبات التى واجهت التنفيذ كانت هائلة ، لأنه لم يحدث قط فى التاريخ أن طولبت مدينة بمراعاة مثل هذه الفضيلة الصارمة ، وعارض فريق كبير نظام الحكم إلى درجة إعلان

الثورة الصريخة ، ولكن لا بد أن عدداً لا يستهان به من المواطنين ذوى النفوذ قد أيدوه ، ولو على أساس النظرية العامة للأخلاق ، لأن آخرين كانوا فى حاجة إليها . وليس من شك فى أن تدفق الهوجنوت الفرنسيين وغيرهم من البروتستانت قد أطلق يد كالفن ، ثم أن قصر التجربة على مدينة جينيف وما وراءها قد رفع من فرص النجاح . ولا شك أن الخوف المتواتر من غزو الدول المعادية لها (سافوى وإيطاليا وفرنسا والإمبراطورية) وامتصاصها قد فرض الاستقرار السياسى والخضوع المدنى ، ورفع الخطر الخارجى من شأن النظام الداخلى ، وعلى أى حال فإن لدينا وصفاً حماسياً للنتائج التى أسفر عنها هذا الحكم ، بقلم شاهد عيان هو برناردينو أوكينو ، وهو إيطالى بروتستانتى ، وجد ملجأ فى مدينة جينيف .

« إن السب والتجديف وعدم التمسك بالعفة وتدنيس المقدسات والزنا والحياة غير الطاهرة ، كما يشيع ويغلب ذلك فى كثير من الأماكن التى عشت فيها ، غير معروفة هنا . ليس هناك قوادون ومومسات . إن الناس لا يعرفون ما هو الأحمر ، وكلهم يرتدون زياً لائقاً ، والألعاب التى تعتمد على الحظ ليست مألوفة . والخير جد وفير إلى جد أن الفقراء ليسوا فى حاجة إلى التسول . والناس يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف بطريقة أخوية كما فرض المسيح .

والدعوى اختفت من المدينة ولم يعد فيها أى اتجار بالمقدسات أو قتل أو روح حزبية ، وعمها السلام وحب الخير ، ومن جهة أخرى ليس هناك آلات أرغن ولا أجراس تدق ولا أغاني استعراضية ولا شذوع تشعل أو مصابيح تضاء (فى الكنيسة) وليس هناك مخلفات مقدسة أو صور أو تماثيل أو مظلات أو أثواب فاخرة أو هزليات أو احتفالات باردة . إن الكنائس خالية تماماً من عبادة الأوثان » (٤٦) .

ولا تتفق سجلات المجلس المستفيضة عن هذا العهد ، مع هذا التقرير ،

فهى تكشف عن نسبة مئوية عالية من الأطفال غير الشرعيين والأطفال المهجورين والزيجات التى تمت بالإكراه والأحكام الصادرة بالإعدام (٤٧) . ومن بين من أدينوا بالزنى صهر (٤٨) كالفن وابنة زوجته . ولكننا نجد مرة أخرى حوالى عام ١٦١٠ فالينتين أندريا وهو قسيس لوثرى من فينبرج يشى على مدينة جنيف ثناء لا يخلو من الحسد ويقول : « عند ما كنت فى جنيف لاحظت شيئاً عظيماً سوف أذكره وأتشوف إليه ما حيت . فى تلك المدينة ليس هناك نظام كامل لجمهورية كاملة فحسب . ولكن هناك نظام أخلاقى يقوم باستمصات أسبوعية عن سلوك المواطنين بل وعن أقل عمل يتجاوزن به الحدود ، وذلك كحلية خاصة . . . وكل السباب والتجديف والتمار والترف والشتم والكرهية والغش محظورة ، وفى الوقت نفسه لا يسمع أحد عن الكبر . فأية صفة مجيدة يتحلى بها الدين المسيحى أعظم من مثل هذه الطهارة فى الأخلاق . إننا يجب أن نبكى وننوح على أننا (الألمان) نفتقد هذه الصفات وأنها أهملت عندنا كلية .

ولولما بيننا من خلاف فى الدين لربطت نفسى بمدينة جنيف إلى الأبد (٤٩) .

٥ - معارك كالفن

اتسقت شخصية كالفن مع لاهوته . وتصوره اللوحة الزيتية المحفوظة فى مكتبة الجامعة بجنيف رجلاً صوفياً صارماً حزيناً ذا بشرة قائمة هربت منها الدماء ، ولحية سوداء قليلة الشعر ، وجهه عريضة وعينين قاسيتين نفاذتين . وكان قصير القامة نحيل الحسد ضعيف البنية لا يكاد يصلح لأن يحمل مدينة بين يديه . ولكن خنف الهيكل الضعيف يتوقد ذهن حاد فذ مخالص مدقق وإرادة حازمة لا تتهر ولعلها إرادة للقوة . وكان فكره قلعة للنظام جعل منه تقريباً أكويين اللاهوت البروتستانتى . وكانت ذاكرته تزخر بآلاف الموضوعات إلا أنها دقيقة وكان يسبق عصره فى الشك فى علم التنجيم ويواكبه فى رفض الاعتراف بكوبرنيكوس ويتخلف عنه قليلاً (مثل لوثر) فى نسبة كثير من الحوادث الدنيوية إلى الشيطان . وكان

وجله يخفى شجاعته ونخجله بحجب كبرياء في باطنه وذلته أمام الله أصبحت في بعض الأحيان عجرفة آمرة أمام الناس . وكان شديد الحساسية للنقد ولم يكن في وسعه أن يتحمل المعارضة بجلد امرئ يستطيع أن يدرك احتمال أنه قد يكون مخطئاً . وهذه المرض وانحى ظهره من كثرة العمل وإذا كان كثيراً ما كان يتم غيظاً وينفجر في نوبات من الفصاحة الغاضبة ، واعترف لبوسر بأنه وجد أن من الصعب عليه أن يروض « الوحش الكامن في غضبه » (٥٠) ولم يكن من فضائله المرح الذي كان حرياً بأن يخفف من يقينيته ولا الإحساس بالجمال الذي كان كثيراً ما يستبقي الفن الكنسي . ومع ذلك فإنه لم يكن مشاغباً لاتلين قناته ، وأمر أتباعه بأن يكونوا منشرحين وأن يلعبوا ألعاباً لا ضرر منها مثل لعب الكرة ولعبة صيد الخنزير بحلقات الحبال وأن يستمتعوا بشرب النبيذ في اعتدال . وكان في وسعه أن يكون صديقاً حنوناً رقيق القلب وعدواً لا يتسامح ، وكان قادراً على إصدار أحكام قاسية وعلى الانتقام بشدة . وكان الذين يخدمونه يخشونه (٥١) ، أما الذين كانوا يحبونه فهم الذين عرفوه حق المعرفة . وكانت حياته الجنسية خالية من الزلات ، وكان يعيش في بساطة ويأكل قليلاً ، ويصوم دون أن يقصد التباهي ، ولا ينام إلا ست ساعات في اليوم ، ولم يحصل قط على إجازة ، واستنفد قواه دون تحديد فيما ظن أنه عبادة الله . ورفض أن يمنح زيادة في مرتبه ولكنه سعى لكي يرفع الأموال المخصصة للبر بالفقراء . وقال البابا بيوس الرابع : « إن قوة ذلك الهرطيق تكمن في هذا : إن المال لم يكن له أقل سحر عليه . وإذا كان لدى أتباع مثله فإن مملكتي سوف تمتد من البحر إلى البحر » (٥٢) . ورجل له مثل هذا الطبع لا بد أن يثير حقد كثير من الأعداء ، وحرابهم بشدة وبلغة العصر الجدلوية . . . ووصف خصومه بأنهم من الأوغاد وأنهم أغبياء وكلاب وحمير وخنزير وبهايم منتنة (٥٣) - وهي نعوت أقل لياقة بالنسبة للاتينية الرشيقة من أسلوب لوثر الذي يشبه أسلوب المجالدين ، ولكنه واجه استفزازات . فقد حدث يوم أن قاطع جيروم بولسيك ،

وهو راهب سابق من فرنسا ، كالفن وهو يقدم عظته في كنيسة القديس بطرس وندد بالعميدة التي تقول بالخبير باعتبارها إهانة للرب ، فرد عليه كالفن بأن تلا آيات من الكتاب المقدس ، واعتقلت الشرطة بولسيك وآتممه مجمع الكرادلة بالهرطقة . وكان المجلس ميالا إلى الحكم عليه بالإعدام ، ولكن عند ما استأنس بآراء علماء اللاهوت في زيورخ وبازيل وبرن دلت على أنها مبلبة : فقد أوصت برن بالحرص في علاج المشكلات التي تدق على إدراك الإنسان - وهي نعمة جديدة في أدب العصر ، وحذر بولينجر ، كالفن ، أن «الكثيرين مستاعون مما تقول في كتابك القوانين حول الخبز ، ويستخلصون نفس النتائج مثل بولسيك» (٥٤) وتراضى المجلس على النفي (١٥٥١) وعاد بولسيك إلى فرنسا وإلى الكاثوليكية .

وأهم من هذا في النتيجة مناظرة كالفن مع جواليم ويستفال ، إذ ندد هذا القسيس اللوثرى برأى زونجلي وكالفن القائل بأن المسيح لا يحضر في القربان المقدس إلا بروحه وعهده هذا «تجديداً من وحى الشيطان» ورأى أن المصلحين الدينين السويسريين يجب ألا يرد عليهم بأقلام علماء اللاهوت ، ولكن بعضا الحكام (١٥٥٢) ورد عليه كالفن بألفاظ بلغت من القسوة حداً دفع زملاءه من المصلحين الدينين في زيورخ وبازيل وبرن إلى رفض التوقيع على احتجاجه . ومع ذلك فإنه أصدره ، وعاد ويستفال وآخرون من أنصار لوثر إلى الهجوم ، فلمغهم كالفن بأنهم «قردة لوثر» وأبدي من الحجج القوية ما دفع عدة مناطق كانت وقتذاك تناصر لوثر مثل - براندنبرج والبلاطينات وأجزاء من هس وبريمن وآنهالت وبادن إلى الموافقة على وجهة نظر سويسرة والكنيسة التي خضعت للإصلاح الديني ، ولم ينقد باقي ألمانيا الشمالية من التحول عن العميدة اللوثرية إلا صمت ميلانكتون (الذي كان يتفق في الرأي سرّاً مع كالفن) وصدى صواعق لوثر بعد الموت .

وتحول كالفن من هذه الهجمات على اليمين وواجه إلى اليسار جماعة من المتطرفين وصلوا حديثاً إلى سويسرة من إيطاليا المعارضة لها في الإصلاح

الدينى . وكان كايلىوس سيكوندوس كوريو يلقى تعاليمه فى لوزان وبازيل .
وقد صدم كالفن عند ما أعلن أن الناجين - وفيهم كثير من الوثنيين -
سوف يفوقون عدداً المعذبين فى نار جهنم بكثير . أما لايلىوس سوكينوس ،
وهو ابن أحد كبار فقهاء القانون الإيطاليين ، واستقر فى زيورخ فقد درس
اليونانية والعربية والعبرية لكى يفهم الكتاب المقدس على أحسن وجه ، وتعلم
كثيراً جداً ، وفقد إيمانه بالثالوث الأقدس والجبر والخطيئة الأصلية والتكفير .
وأعرب عن شكه لكالفن الذى رد عليه بقدر الإمكان . ووافق
سوكينوس على أن يتجنب التعبير علناً عن شكوكه ولكنه تكلم فيما بعد
معارضاً تنفيذ حكم الإعدام فى سرفيتوس ، وكان من بين القائلين الذين وقفوا
يدافعون عن التسامح الدينى فى ذلك العصر المحموم .

وفى دولة يمتزج فيها الدين والحكومة فى مزيج مسكر ، كان من الطبيعي
أن تكون أشد المعارك التى نخاضها كالفن هى معاركه مع الوطنيين والمتحررين
والذين أقصوه مرة عن البلاد والذين أسفروا الآن لعودته . فقد استاء الوطنيون
من أصله الفرنسى ومن أنصاره وكرهوا لاهوته ولقبوه بقابيل ، وأطلقوا
على كلابهم اسم كالفن . وسبوه فى الطرقات ، وأعلمهم هم الذين أطلقوا فى
إحدى الليالى خمسين طلقة نارية خارج بيته . وبشر المتحررون بعقيدة تقول
بوحدة الوجود ، وتخلوا عن ذكر الشياطين أو الملائكة أو لجنة عدن أو التكفير
أو الكتاب المقدس أو البابا . واستقبلتهم مارجرىت ملكة نافار وأيدتهم فى
بلاطها بنيراك ، ولامت كالفن على قسوته معهم .

وفى يوم ٢٧ يونيه عام ١٥٤٧ وجد كالفن إعلاناً كبيراً ملصوقاً على
منبره وجاء فيه : منافق كبير إن تجنى أنت ورفقاؤك بالملك إلا النذر
اليسير وإذا لم تنجوا بحياتكم بالهرب فلن يحول أحد دون القضاء عليكم ، وسوف
تلعن الساعة التى تركت فيها ديرك . . . إن الناس ينتقمون لأنفسهم بعد
أن عانوا طويلاً . . . احلن فلن تعامل مثل السيد فيرل (الذى كان قد
قتل) . . . لم يكون لنا سادة كثيرون إلى هذا الحد (٥٥) . . .

وقبض على بجاك جريه، وهو أحد كبار المتحررين، إذا شتبه في أنه كتب الإعلان ولم يقدم أى دليل . وادعى بعضهم أنه قبل ذلك ببضعة أيام تفوه بتهديدات ضد كالفن، ووجد في حجراته أوراق قيل أنها بخط يده ، يصف فيها كالفن بأنه منافق متعجرف وطموح ويسخر فيها من أن الكتب المقدسة وحى من عند الله ومن خلود الروح . وعذب مرتين كل يوم لمدة ثلاثين يوماً إلى أن اعترف - ولا ندرى مدى ما في اعترافه عن صدق - بأنه كان قد ثبت الإعلان الكبير وتآمر مع العملاء الفرنسيين ضد كالفن ومدينة جينيف . وفي يوم ٢٦ أيلول ربط إلى خازوق ، وهو نصف ميت ، وسمرت قدماه فيه وقطع رأسه (٥٦) .

وازدادت حدة التوتر إلى أن جاء الوطنيون والمتحررون يوم ١٦ ديسمبر عام ١٥٤٧ وهم مسلحون وحضروا اجتماعاً للمجلس الكبير وطالبوا بوضع حد لسلطة مجمع الكرادلة على المواطنين ، وفي ذورة هرج عنيف دخل كالفن إلى الحجرة وواجه الزعماء المعادين له وقال وهو يدق على صدره : « إذا كنتم تريدون سفك دمي فما زالت هنا بضع قطرات فهيا اضربوا » وسحبت السيوف و لكن أحداً لم يجسر على أن يكون القاتل الأول . ونخاطب كالفن الجمع بحلم نادر وأخيراً اقنع كل الأطراف بعقد هدنة . ومع ذلك فقد اهتزت ثقته في نفسه .

وكتب يوم ١٧ ديسمبر إلى فريه يقول : « إن أملى ضعيف في أن تستطيع الكنيسة أن تجد لها عضداً أكثر من هذا ، على الأقل من رجال الدين يقومون بالخدمة الدينية . صدقني إن ساطاني يتحطم ، اللهم إلا إذا مد الله إلى يده » . و لكن المعارضة انقسمت شيعاً وأحزاباً وهدأت إلى أن أتاحت لها محاكمة سرفيتوس فرصة أخرى .

٦ - ميكائيل سرفيتوس ١٥١١ - ٥٣

ولد ميغيل سرفيتوس في فيلانوفا (وتقع على بعد حوالي ستين ميلا من ساراغوسه) وهو ابن موثق عقود من أسرة كريمة . ونشأ في عهد كانت فيه كتابات أرازموس تتمتع بتسامح عابر في إسبانيا . وكانت متأثرا إلى حد ما بأدب اليهود والمسلمين ، إذ قرأ القرآن وشق طريقه في التأويلات التامودية وتأثر بنقد الساميين للمسيحية (بصلواتها للثالوث وللمريم وللقديسين) باعتبارها شركاً . وأطلق عليه لوثر لقب « المراكشي » .

وفي تولوز حيث درس الثمانون ، رأى لأول مرة كتاباً مقدساً كاملاً وأقسم ليقرأه « ألف مرة » ، وتأثر تأثراً عميقاً بالروى في سفر الرؤيا . وفاز برعاية جوان دي كوينتانا كاهن الاعتراف الخاص لشارل الخامس ، وأخذ به جوان إلى بولونيا وأوجسبورج (١٥٣٠) ، واكتشف ميكائيل البروتستانتية وأحبها ، وزار أويكو لامباديوس في بازيل ، كما زار كاييتو وبوسر في شتراسبورج ، وسرعان ما غدا هرطيقاً في رأيهم ، ودعى لكي يرعى في حقول أخرى .

ونشر في عامي ١٥٣١ و ١٥٣٢ أول وثاني طبعة من مؤلفه De Trini-
tatis erroribus ، وكان فيه خلط كثير ، وكتب بلغة لاتينية غير مصقولة لا بد أنها كانت تدفع كالفن إلى الابتسام لو اطلع عليها ولكنها كانت عملاً مذهلاً بالنسبة لفتى في العشرين من عمره بسبب ثراتها في سعة العلم بالكتاب المقدس . وكان يسوع في نظر سرفيتوس رجلاً نفخ فيه الرب ، الأب كلمة الله ، الحكمة الإلهية ، وبهذا المعنى أصبح يسوع ابن الرب ولكنه لم يكن كفوا للأب أو سرمدياً مثله ، يستطيع أن يوصل روح الحكمة نفسها إلى الآخرين من الناس « إن الابن أرسل من الأب بطريقة لا تختلف عن تلك التي أرسل بها واحد من الأنبياء » (٥٧) ، وهذا قريب جداً من مفهوم

محمد عن المسيح . واستطرد سرفيتوس ليستشهد برأى الساميين في القول
بالثالوث الأقدس : « وكل من يؤمن بثالوث أقدس بروح الله يقول بوجود
ثلاثة أرباب » . وأضاف قائلاً إنهم ملحدون حقاً باعتبارهم منكرين لوجود
إله واحد (٥٨) . وكان هذا تطرفاً شديداً من شاب ، ولكن سرفيتوس حاول
أن يخفف من هرطقته بتأليف مقطوعات مهلهلة النسيج عن المسيح باعتباره
نور العالم ، ومهما يكن من أمر فإن معظم قرائه شعروا بأنه قد أطفأ النور .
وكأنما كان يريد ألا يترك حجراً دون أن يقذف به أحداً فتساقى مع
اللامعمدانيين في أن التعميد يجب ألا تجرى مراسيمه إلا للبالغين . فأنكر
عليه ذلك أويكو لامباديوس وبوسر ، فقلب سرفيتوس دليل سفر كالفن
وفر من سويسرة إلى فرنسا (١٥٣٢) .

وفي يوم ١٧ يوليو أصدرت محكمة التفتيش في تولوز أمراً بالقبض
عليه . وفكر في السفر إلى أمريكا ولكنه وجد أن باريس أحسن منها . وهناك
تذكر في شخصية ميشيل دي فيلينف (اسم العائلة) ودرس الرياضيات
والجغرافيا وعلم الفلك والطب وغازل التنجيم . وكان فيزاياوس العظيم
زميله في دراسة التشريح وأثنى أساتذتهما عليهما سوياً . وتشاجر مع عميد
كلية الطب ، ويبدو بوجه عام أنه أساء التصرف بتهوره وانفعاله واعتزازه
بنفسه . وتحدى كالفن للدخول معه في مناظرة ولكنه لم يظهر في المكان
والزمان المعينين (١٥٣٤) . وغادر سرفيتوس باريس مثل كالفن في
الفترة التي اشتد فيها الغضب على خطاب كروب والإعلانات الكبيرة
الهرطيقية .

وفي ليون أشرف على نشر طبعة جديدة بعالم من جغرافية بطليموس ،
وانتقل عام ١٥٤٠ إلى فيين (على بعد ستة عشر ميلاً جنوبي ليون) ، وهناك
عاش حتى آخر سنة من حياته وهو يمارس الطب ويشغل بالبحث . واختير
من بين الكثيرين من الباحثين الذين أتيح للناشرين في ليون التعامل معهم
لكي يشرف على نشر ترجمة لاتينية للكتاب المقدس قام بها سانتيس باجنيني .

وقضى في هذا العمل ثلاث سنوات وآل إلى ست مجلدات . وفي آية عن أشعيا ٧ : ١٤ الذي كان جيروم قد جعلها « عنذراء سوف تحمل » ، شرح سرفيتوس أن الكلمة العبرية لا تعني عنذراء بل امرأة شابة ، ورأى أنها لا تشير إشارة تنبئية إلى مريم بل إلى زوجة حزقيال ، وأوضح بنفس الروح أن بعض الفقرات الأخرى في العهد القديم التي تبدو تنبئية تشير فقط إلى شخصيات أو حوادث معاصرة . وقد ثبت أن هذا محير للبروتستانت والكاثوليك على السواء .

ولا ندري متى اكتشف سرفيتوس الدورة الدموية الرئوية - مرور الدم من الغرفة اليمنى للقلب على طول الشريان الرئوي إلى الرئتين وتدفقه خلالها وتنقيته هناك بالتعريض للهواء ، وعودته في الوريد الرئوي إلى الغرفة اليسرى من القلب ، وبقدر ما هو معروف الآن فإنه لم ينشر اكتشافه حتى عام ١٥٥٣ عند ما أدرجه في مؤلفه الأخير « إعادة المسيحية » .

وقد جاء بالنظرية في رسالة لاهوتية لأنه اعتقد أن الدم بمثابة الروح الجوهرية في الإنسان ، ومن ثم يعد - ربما أكثر من القلب أو المخ - المقر الحقيقي للروح . وإذا أرجأنا فترة النظر في مشكاة أسبقية سرفيتوس في هذا الاكتشاف فحسبنا أن نلاحظ أنه من الواضح أنه أكل رسالته « إعادة المسيحية » في سنة ١٥٤٦ لأنه أرسل في ذلك العام المخطوطة إلى كالفن .

وكان العنوان نفسه تحدياً للرجل الذي كتب شريعة الدين المسيحي ، بيد أن الكتاب إلى بجانب ذلك رفض الفكرة القائلة بأن الله قادر على أرواح أن تعذب في نار جهنم بغض النظر عن حسناتها أو سيئاتها ، باعتبار أن هذه الفكرة كفر وتجديف . وقال سرفيتوس إن الله لا يحكم على أحد لا يدين نفسه . ولا بأس بالإيمان ولكن المحبة خير وأبقى ، لأن الله نفسه محبة ، ووطن كالفن أنه يكفيه لكي يدحض هذا كله أن يرسل إلى سرفيتوس نسخة

من كتاب «القوانين» ، فأعاده سرفيتوس اليه مع تعليقات مهينة (٥٩) ، وأعقب ذلك بارسال سلسلة من الخطابات تحفل عباراتها بالازدراء الشديد إلى حد أن كالفن كتب إلى فاريل (١٣ فبراير سنة ١٥٤٦) : « لقد أرسل لي سرفيتوس مجلداً مطولاً بأقواله الطارفة . وإذا وافقت فلن يتردد في الحضور هنا ، ولكنني لن أعطيه كلمة مني لأنه إذا جاء فإني لن أطيق أن أتركه يخرج حياً إذا كان هذا في سلطتي» (٦٠) ، وغضب سرفيتوس لرفض كالفن استمرار المراسلة بينهما فكتب إلى آييل بوبان ، وهو أحد قساوسة جنيف يقول :

« إن إنجيلكم بدون رب وبدون إيمان حق وبدون أعمال صالحات . فبدلاً من الرب عبدتم (*) سربيروس ذا الرؤوس الثلاثة (الثالوث المقدس) وبدل الإيمان اتخذتم حلماً حتمياً . . . والإنسان عندكم بدن هامد والرب خيال الإرادة المستعبدة . . . إنكم تغلقون أبواب مملكة السماء في وجوه الناس . . . الويل ! الويل ! الويل ! هذا هو ثالث خطاب أكتبه لكم لأحذركم عماكم تعرفون أحسن من هذا . ولن أحذركم مرة أخرى في معركة ميكائيل هذه أعلم أنني سوف أموت لا محالة . . . بيد أنني لن أتردد . . . أن المسيح أت ولا ريب . ولن يتمهل» (٦١) .

ومن الواضح أن سرفيتوس كان أشد خبلاً من المتوسط في عصره . فقد أعلن أن نهاية العالم قد أوشكت وأن ميكائيل رئيس الملائكة سوف يشن حرباً مقدسة ضد المناهضين للمسيحية من البابويين وأهالي جنيف على السواء ، وأنه وقد سمي باسم رئيس الملائكة سوف يقاتل ويموت في تلك الحرب (٦٢) . وكان كتاب «الإعادة Restitutio» دعوة إلى تلك الحرب . فلا عجب إذا كان قد وجد صعوبة في العثور على ناشر يقبله إذ أجفل منه الناشرون في بازيل ، وأخيراً (٣ يناير عام ١٥٥٣) طبعه بالتأزر

أرتوبيه وجيوم بجيروه في الخفاء بمدينة فين . ولم تذكر أسماءهم ولا مكان النشر ووقع المؤلف باسم م . س . ف . ودفع كل النفقات وصحح بنفسه التجارب ثم أتلّف المخطوط . ووصل المجلد إلى ٧٣٤ صفحة لأنه تضمن شكلاً منقحاً من كتاب « *De Trinitatis erroribus* » ورسائل سرفيتوس الثلاثين إلى كالفن ، وأرسل إلى بائع كتب في جنيف بجانب من الألف نسخة المطبوعة . وهناك وقعت نشرة في يدي جيوم ترى وهو صديق لكالفن . وقد أوضحت الخطابات الثلاثون بجلاء لكالفن أن م . س . ف . هي الحروف الأولى من اسم ميكائيل سرفيتوس الفيلانوفى . وكتب ترى في يوم ٢٦ فبراير عام ١٥٥٣ إلى ابن عم كاثوليكي في ليون يدعى أنطوان أرني أعرب له فيها عن دهشته من أن الكاردينال فرانسوا دي تورنون قد سمح بنشر كتاب مثل هذا في دائرة أسقفية . كيف عرف ترى مكان النشر ؟ لقد عرف كالفن أن سرفيتوس كان يعيش في ليون أو فين . وعرض أرني الأمر على ماتياس أورى عضو محكمة التفتيش في ليون فأبلغ أورى بذلك الكاردينال ، فأصدر أمراً إلى موجيرون نائب محافظ فين للبحث والاستقصاء . وفي يوم ١٦ مارس استدعى سرفيتوس إلى بيت موجيرون . وقبل أن يخضع للأمر أتلّف كل الأوراق التي تثبت ذنبه . وأنكر أنه أُلّف الكتاب ، فأرسل أرني إلى ترى يطلب منه تقديم دليل آخر على أن سرفيتوس هو مؤلف الكتاب . وحصل ترى من كالفن على بعض الخطابات التي أرسلها له سرفيتوس . وبعث بها إلى ليون . وتبين أنها تطابق عدداً من الخطابات المنشورة في الكتاب . وقبض على سرفيتوس في اليوم الرابع من أبريل ، وفر بعد ثلاثة أيام بالقفز فوق سور حديقة . وفي يوم ١٧ يونيه أدانته المحكمة المدنية في فين وحكمت عليه بأن يحرق حياً على نار بطيئة إذا عثر عليه .

وأخذ سرفيتوس يضرب على غير هدى في أنحاء فرنسا لمدة ثلاثة شهور ، وقرر أن يلجأ إلى نابولي وأن يذهب عن طريق جنيف ، وظل في جنيف

شهرًا لأسباب غير معروفة متخذ اسمًا مستعارًا ، وفي غضون ذلك أعد ترتيباته للانتقال إلى زيورخ ، وفي اليوم الثالث عشر من أغسطس حضر الصلاة بالكنيسة ، ولعله فعل هذا لكي يتجنب استقصاء السلطات عنه . وهناك عرف وأبلغ ذلك إلى كالفن فأمر بالقبض عليه . وشرح كالفن هذا العمل في خطاب (٩ سبتمبر عام ١٥٥٣) ، قال : « إذا كان البابويون قساة غلاظ الأكباد ويظهرون منتهى العنف دفاعاً عن نزع عيالتهم إلى حد أنهم يشورون غضباً وتقسو قلوبهم فيسفكون الدم البريء ألا ينجل الحكام المسيحيون من أنفسهم عند ما يبدون أمام الناس أقل غيرة في الدفاع عن الحق الذي لا ريب فيه ؟ » وتأثر المجلس الصغير بزعامة كالفن وفاقه في القسوة والفظاظة ، ولما كان سرفيتوس مجرد عابر سبيل ولم يكن مواطناً يخضع لقوانين مدينة جينيف فإن المجلس من الناحية القانونية كان لا يستطيع أن يفعل شيئاً أكثر من نفيه خارج المدينة .

واعتقل في قصر سابق لأحد الأساقفة تحول الآن إلى سجن . ولم يعذب إلا بالقمل الذي أغار على زنزانه . وسمح له بورق وحب وبأى كتب يعن له شراؤها ، وأعاره كالفن بضعة مجلدات بتلم الآباء الأوائل . وأديرت المحاكمة بعناية واستمرت ما ينوف على شهرين . ودبج كالفن قرار الاتهام في ثمان وثلاثين مادة دعمها بفقرات اشتهر بها من كتابات سرفيتوس . ومن بين التهم أنه قبل وصف سترابو لليهودية بأنها بلد مجذب بينما وصفها الكتاب المقدس بأنها أرض يتدفق فيها اللبن والعسل (٦٣) . وكانت الاتهامات الرئيسية الموجهة إلى سرفيتوس هي أنه رفض التسليم بالثالوث وتعميد الأطفال ، كما اتهم أيضاً بأنه « طعن في شخص السيد كالفن العقائد التي فرضها إنجيل كنيسة جينيف » (٦٤) ، وفي يومى ١٧ و ٢١ من أغسطس ظهر كالفن بشخصه في قاعة المحكمة ليوجه له الاتهام . ودافع سرفيتوس عن آرائه بشجاعة ، ومنها القول بمذهب وحدة الوجود . وقام تعاون غير مألوف بين العقائد المعادية فطلب المجلس البروتستانتي في جينيف من القضاة الكاثوليك في فين إبداء

آرائهم في فقرات خاصة من الاتهامات التي وجهت هناك ضد سرفيتوس .
ومن بين التهم الجديدة الفجور الجنسي ، فرد سرفيتوس بأن الفتق قد حوله
منذ زمن بعيد إلى عنين ومنعه من الزواج (٦٥) . واتهم علاوة على هذا بأنه كان
قد حضر القداس في فيين ، فدافع عن نفسه وبرر أنه إنما أقدم على هذا
خوفاً على حياته . وتحدى أن تكون لمحكمة مدنية ولاية في الفصل في قضايا
الهرطقة ، وأكد للمحكمة أنه لم يقم بإثارة شغب ولم يخالف قوانين مدينة جينيف
وطالب بتعيين محام له يلم بهذه القوانين خيراً منه ، وذلك ليعاونه في الدفاع عن
نفسه ، ورفضت كل هذه الحجج وأرسلت محكمة التفتيش الفرنسية وكيلا
عنها إلى مدينة جينيف للمطالبة بإعادة سرفيتوس إلى فرنسا لتنفيذ الحكم الذي
صدر ضده . فتوسل سرفيتوس للمجلس والدموع تسيل من مآقيه أن يرفض
هذا الطلب ، فاستجاب له المجلس ، ولكن لعل الطلب قد حفز المجلس على
ألا يكون أقل قسوة من محكمة التفتيش .

وفي اليوم الأول من سبتمبر سمح لعدوين من أعداء كالفن — هما
آمي بيران وفيلبرت برتلييه — بأن ينضما إلى القضاة الذين يتولون المحاكمة ،
فشغلا كالفن بمجادلات ، لا طائل تحتهما ، ولكنهما أقنعا المجلس باستشارة
الكنائس الأخرى في سويسرة البروتستانتية عن كيفية معاملة سرفيتوس ،
وفي اليوم الثاني من سبتمبر واجهت زعامة كالفن في المدينة تحدياً في المجلس
على يد الوطنيين والمتحررين ، فواجهه المعاصفة حتى مرت بسلام ، ولعل رغبة
المعارضة الواضحة في إنقاذ سرفيتوس قد شددت من عزيمة كالفن على أن
يلاحق الهرطيق حتى ينفذ فيه حكم الإعدام . ومهما يكن من أمر فإنه
يجدر بنا أن ننوه بأن المدعى الرئيسي في المحاكمة كان كلود ريجوه Rigot
وهو من المتحررين (٦٦) .

وفي اليوم الثالث من سبتمبر قدم سرفيتوس للمجلس رداً مكتوباً على
الاتهامات الثمانية والثلاثين التي وجهها له كالفن . ودحض كل اتهام بحجة

ذكية وبنفتمرات استشهد بها من الكتاب المقدس أو أقوال ردها آباء الكنيسة . وتساءل عن حق كالفن في التدخل في المحاكمة ووصفه بأنه من مريدى سيمون ماجوس وهو مجرم وسفك للدماء (٦٧) . فرد عليه كالفن في ثلاث وعشرين صفحة ، عرضت على سرفيتوس ، الذى أعادها بدوره إلى المجلس بتعليقات هامشية مثل « كذاب » و « دجال » و « منافق » و « تعس شتى » ، ولعل ما عاناه سرفيتوس من نصب في السجن خلال شهر وما لاقاه من تعذيب عقلي قد حطم ضبط النفس . وتقارير كالفن ذاتها عن المحاكمة دجت بأسلوب المحصر ، فراه يكتب عن سرفيتوس فيقول : « مسح الكلب القمير أنفه » و « السافل الغادر » (٦٨) يلوث كل صفحة و « تخريفات منافية للتقوى » (٦٩) . والتمس سرفيتوس من المجلس أن يتهم كالفن بأنه « يجمع حقيقة يسوع المسيح » وأن « يمحوه من الوجود » ويصادر أمواله ، وذلك لتعويض سرفيتوس بهذه الإجراءات عن الأضرار التى لحقت به من جراء أعمال كالفن . ولم يقابل الاقتراح بالترحيب :

وفي اليوم الثامن عشر من أكتوبر وردت الردود من الكنائس السويسرية التى طلب منها إبداء المشورة ، فرأت كلها إدانته سرفيتوس ، ولم يطلب واحد منها إعدامه . وبذل بيران آخر مجهود لإنقاذه في اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر بالمطالبة بإعادة المحاكمة أمام مجلس المائتين ولكنه غلب على أمره . وفي اليوم السادس والعشرين أصدر المجلس الصغير حكماً بالإعدام بإجماع الآراء ، واستند في الحكم على دليلين يثبتان الهرطقة - مذهب التوحيد ورفض التسليم بتعميد الأطفال . ويقول كالفن « إن سرفيتوس عند ما سمع النطق بالحكم » أن وتأوه كرجل فقد رشده و . . . ودق صدره وزجر قائلاً بالإسبانية *Misericordia ! Misericordia !* ، وطلب أن يسمح له بالحديث مع كالفن وتوسل إليه طالباً الرحمة ، بيد أن كالفن لم يعرض عليه أكثر من إجراءات المواساة الأخيرة للدين الحقى إذا سحبت هرطقاته ، ولم يرض سرفيتوس ، وطلب أن تقطع رأسه ولا يحرق ، وكان كالفن يميل إلى دعم هذا

الطلب وراكن فاريل الطاعن في السن ، الذي يقترب من حافة انقهر زجره
لما بدا منه من تسامح ، وصوت المجلس على أن يحرق سرفيتوس حياً (٧٠) .
ونفذ الحكم في صباح اليوم التالي يوم ٢٧ أكتوبر عام ١٥٥٣ على تل
تشمبل الذي يقع مباشرة بجنوبي مدينة جنيف . وفي الطريق ألح فاريل
على سرفيتوس أن ينال رحمة الله بالاعتراف بجريمة الهرطقة ، فأجابته الرجل
المحكوم عليه ، طبقاً لما رواه فاريل : « أنا لست مذنباً ولم أكن أستحق
الموت ، وابتهل إلى الله أن يغفر لمن اتهموه » (٧١) . وأوثق إلى سارية بسلاسل
حديدية وربط إلى بجانبه كتابه الأخير . وعند ما بلغت ألسنة اللهب وبجبهه
صرخ من الألم . ومات بعد حرقه بنصف ساعة .

٧ - دعوة للتسامح

اتحد الكاثوليك والبروتستانت في الموافقة على الحكم . ولما أفلتت من
محكمة تفتيش فين فريستها فإنها قامت بإحراق تمثال لسرفيتوس (*) . وأعرب
ميلانكتور في خطاب له إلى كالفن وبولينجر عن « حمله لابن الرب » له « معاقبة
الرجل الكافر » ووصفه عملية الإحراق بأنها « مثال يدل على الورع لا ينسى
لكل الأجيال القادمة » (٧٢) . وأعلن بوسر من فوق منبره في شتراسبورج أن
سرفيتوس قد استحق أن تنزع أعمائه ويمزق إرباباً (٧٤) . ووافق بولينجر ، وهو
بوجه عام خير رقيق العاطفة ، على أن الحكام المدنيين يجب أن يعاقبوا
بالموت من ثبت عليه الكفر (٧٥) .

ومع ذلك فقد ارتفعت بعض الأصوات تدافع عن سرفيتوس حتى
في أيام كالفن ، فقد نظم صقلي قصيدة طويلة بعنوان : De iniusto Serveti
incendio ، ونشر دافيد جوريس البازيلي ، وهو لامعمداني ،
احتجاجاً ضد تنفيذ حكم الإعدام ، بيد أنه وقع عليه باسم مستعار ولما اكتشف

(*) في سنة ١٩٠٣ أقيم نصب تذكاري لسرفيتوس في تشمبل وكان في أول قائمة الذين
شاركوا في نفقاته المجمع الديني لكنيسة جنيف التي أخذت بمبادئ الإصلاح الديني (٧٢) .

بعد وفاته أنه كاتب هذا الاحتجاج أخرجت بجثته بعد المدفن وأحرقت
علناً (١٥٦٦) . وبالطبع أدان خصوم كالفرن السياسيون معاملته لسرفيتوس
واستهجن بعض أصدقائه قسوة الحكم باعتباره مشجعاً للكاثوليك في فرنسا
على تطبيق عقوبة الإعدام على الموبجنوت . ولا بد أن هذا النقد قد انتشر
انتشاراً واسعاً لأن كالفن أصدر في فبراير عام ١٥٥٤ *a Defensio*
orthodoxae fidei de sacra Trinitate contra Prodigiosos errores
Michaelis Servetir دفاع محافظ على الشريعة عن القول بالثالوث المقدس
ضد أخطاء ميكايل سرفيتوس الفظيعة . وقال : إذا آمننا بأن الكتاب
المقدس وحى من الله فإننا نعرف الحقيقة وكل من يعارضونه أعداء الله
كافرون به . ولما كان ذنبهم أعظم بكثير من أى جريمة أخرى فإن
على السلطة المدنية أن تعاقب الهرطقة باعتبارهم أسوأ من أى سفاحين ، ذلك
لأن القتل العمد يؤدي إلى هلاك الجسد فحسب بينما الهرطقة المقبولة تعرض
الروح للعذاب الأبدي في نار جهنم (وكان هذا بالضبط موقف الكاثوليك)
وفضلاً عن هذا فإن الرب نفسه قد علمنا بصورة قاطعة أن نقتل
الهرطقة وأن نضرب بالسيف أى مدينة تتخلى عن عبادة الرب وفق
العقيدة الخالصة التي كشفها لنا بنفسه . واستشهد كالفن بسنن سفر اثنية
القماسية ١٣ : ٥ - ١٥ و ١٧ : ٢ - ٥ وسفر الخروج ٢٢ : ٢٠
وسفر اللاويين ٢٤ : ١٦ وناقش بها بلاغة ملتزمة حقاً : « كل من يتمسك
بأن الهرطقة والكفار لحقهم ضرر بمعاقبتهم يورط نفسه بأن يكون
شريكاً لهم في جريمتهم . . . ولا محل هنا للحديث عن سلطة الإنسان
فالرب هو الذي يتكلم ، ومن الواضح أى شريعة احتفظ بها في الكنيسة
إلى يوم القيامة . فلماذا يطلب منا مثل هذه القسوة الشديدة إذا لم يكن هذا
ليرينا أننا لا نوفيه حقه من التبجيل ما دمنا لا ننزع عبادته تعالى فوق أى
اعتبار إنساني بحيث لا نبقى على أصرة قربى أو صلة دم بيننا وبين أى إنسان وأن
ننسى كل إنسانية عنده ما يكون الأمر متعلقاً بالقتال في سبيل مجده تعالى؟ (٧٦)

ونحنف كالفن من استنتاجاته بأن نصح بالرحمة بالذين لا تكون
هرطقاتهم جوهرية أن الذين يتضح أن هرطقاتهم بسبب الجهل أو ضعف
العقل . ولكن حيث أنه رضى بصفة عامة بالتقديس بولس هادياً له ومرشداً
فإنه رفض أن يلجأ للوسيلة البولسية (نسبة إلى بولس) التي تعلن أن الثمانون
الجديد يحل محل الثمانون القديم . والحق أن حكومة رجال الدين التي كان
من الواضح أنه كان يمكن أن تتعظم وتشيع فيها الفوضى إذا سمحت الخلافات
في العقيدة بإبداء الرأي علناً .

وفي غضون ذلك ماذا آلت إليه الروح الأرازية التي تدعو إلى التسامح ؟
لقد كان أرازموس متسامحاً لأنه لم يكن على يقين تام ، أما لوثر وميلانكتون
فقد تخليا عن التسامح عندما تدرجا في اليقين ، وأما كالفن فكاد يكون على
يقين منذ بلغ عامه العشرين بتبكير قائل في النصح . وليس من شك في أن
قليلاً من علماء الإنسانيات الذين درسوا المفكر الكلاسي والذين لم يهابوا
العودة إلى الحضرة الرومانية بالاشمزاز من الالتجاء إلى العنف في النزاع
اللاهوتي ظاوا يرون على استحياء أن اليقين في الدين والفلسفة أمر لا يمكن
الوصول إليه ، ومن ثم فإن على المشتغلين باللاهوت والفلسفة ألا
يقتلوا أحداً .

وكان عالم الإنسانيات الذي تحدث بوضوح بعض الوقت عن التسامح
وسط صدام اليقينيات واحداً من أقرب أصدقاء كالفن حيناً من الزمن .
فسباسيان كاستيليو الذي ولد في جورا الفرنسية عام ١٥١٥ أصبح حاذقاً
للغات اللاتينية واليونانية والعبرية ودرس اليونانية في ليون وعاش مع كالفن
في شتراسبورج فعينه مديراً للمدرسة اللاتينية في جينيف (عام ١٥٤١) وهناك
شرع في ترجمة الكتاب المقدس بأسره إلى لغة شيشرون اللاتينية . وقد أعجب
بكالفن رجلاً ولكنه كره المذهب القائل بالبحر وأضنى قواه تحت وطأة
النظام الجديد الذي نضع له الجسد والعقل . واتهم في عام ١٥٤٤
القساوسة في جينيف بالتعصب والدنس والسكر . واشتكى كالفن إلى

المجلس ، ووجد أن كاستيليو مذنب بسبب الغيبة ونفى من المدينة (١٥٤٤) ، وعاش تسع سنوات في فاقة ومسغبة وهو يحول أسرة كبيرة ، وكان يعمل أثناء الليل في إنهاء نسخته المترجمة من الكتاب المقدس . وانتهى منها عام ١٥٥١ ، ثم بدأ مرة أخرى في سفر التكوين ١ : ١ وهو وحيد يسعى في هدوء إلى إتمام البحث ، وترجم الكتاب المقدس إلى الفرنسية . وحصل أخيراً (١٥٥٣) على منصب أستاذ لليونانية في جامعة بازيل . وأحس بالعطف على الموحدين وتمنى لو استطاع أن يساعد سرفيتوس ، وراعه دفاع كالفن عن تنفيذ حكم الإعدام . ونشر هو وكامليوس كوريو بأسماء مستعارة (مارس ١٥٥٤) أول كتاب حديث من الكلاسيات عن التسامح : « هل يجب أن يضطهد المرطقة ؟ De haereticis an Sint persequendi »

وكان الهيكل الرئيسي للمؤلف مختارات من الشعر جمعها كوريو من الابهالات المسيحية من أجل التسامح ، من لاكتانتوس وجيروم إلى أرازموس ولوثر في بواكير حياته وكالفن نفسه . واشترك كاستيليو في الحدال بالمقدمة والخاتمة وأشار إلى أن الناس قد ناقشوا في مدة مائة عام الإرادة الحرة والجبر والسماء والجحيم والمسيح والثالوث وأموراً أخرى صعبة ولم يصلوا إلى أى اتفاق ، ومن يدري لعلهم لن يصلوا أبداً إلى اتفاق . وقال كاستيليو : لا داعى لأى اتفاق ، فمثل هذه القضايا الجدلية لا تجعل الناس خيراً مما هم عليه ، وكل ما نحن بحاجة إليه هو أن نتحلى بروح المسيح في حياتنا اليومية وأن نطعم الفقراء ونساعد المرضى ونحب أعداءنا . وبدلاً من أن من السخرية أن تزعم الطوائف الجديدة ، شأنها في هذا شأن الكنيسة القديمة ، أنها على حق مطلق ، وأن تكره من لها عليهم السيطرة الباطنية على اعتناق عقائدها ونتيجة هذا يكون الإنسان محافظاً على العقيدة في مدينة ويصبح هرطيقاً عندما يدخل مدينة أخرى ، وعليه أن يغير دينه كما يغير نقله عند كل حد من حدود البلاد . وهل يمكن أن تتصور أن المسيح يأمر بإحراق رجل حياً

لأنه يدافع عن تعذيب البالغين ؟ لقد حلت محل الشرائع الموسوية التي تدعو إلى القضاء على الحياة كل تطبيق شريعة المسيح التي تدعو إلى الرحمة لا إلى التعسف والإرهاب وإذا أنكر إنسان وجود حياة بعد الموت ورفض الاعتراف بكل شريعة فإنه (كما قال كاستيليو) يمكن للحكام أن يسكتوه فحسب ولكن ينبغي ألا يقتل . وفضلاً عن هذا فإن اضطهاد المتقائد (كما رأى) لا طائل تحته والاستشهاد في سبيل فكرة ينشر هذه الفكرة بسرعة أكبر مما كان في وسع الشهيد أن يفعل لو سمح له بأن يعيش . ونختم كلامه بقوله آية مأساة في أن نرى من حرروا أنفسهم أخيراً من محكمة التفتيش الرهيبة يقلدونها سريعاً في طغيانها ، وأن يكرهوا الناس على أن يعودوا إلى الظلام السيمري بعد فجر واعد مثل هذا (٧٧) .

وعرف كالفن نزعات كاستيليو فتعرف على خطه في رسالته « الهراطقة » ، وفوض مهمة الرد عليها لأذكي تلاميذه تيودور دي بيز أو بيز أو بيزا . وقد ولد تيودور في فيزيلاي من أسرة أرسقراطية ، ودرس القانون في أورليانز وبورجس ومارسه بنجاح في باريس ، وكتب شعراً باللاتينية ، وفتن بعض النساء بتوقد ذهنه وأكثر من هذا بنجاحه ، وعاش حياة مرحة وتزوج وسقط صريع مرض خطير ، وجرب وهو على فراش المرض تحولاً مكوساً نحو تعاليم لويولا ، واعتنق البروتستانتية وفر إلى جينيف وقدم نفسه إلى كالفن وعين أستاذاً لليونانية في جامعة لوزان ، ومما هو جدير بالملاحظة أن لاجئاً بروتستانتيّاً من فرنسا التي تضطهد الهوجنوت أخذ على عاتقه الدفاع عن الاضطهاد ، وقد أدى هذا بمهارة محام وإخلاص صديق ، فأصدر في سبتمبر عام ١٥٥٤ مؤلفاً بعنوان (كتاب صغير عن واجب الحكام المدنيين في عقاب الهراطقة) *De haereticis a civili magistratu puniendis libelus* وأشار مرة أخرى إلى أن التسامح الديني مستحيل لإنسان قبل أن يكتب المقدسة وحتى من لدن الله . ولكننا إذا رفضنا التسليم بأن الكتاب

المقدس كلمة الله ، فعلى أى أساس نبى العقيدة الدينية التى يتضح بجلاء أنه لا غنى عنها - إذا أخذنا فى الاعتبار ما فطر عليه الناس من شر - لكبح جماح الناس وللنظام الاجتماعى - والحضارة ؟ وإذن لن يتبقى إلا شكوك مهوشة تعمل على تفكيك عرى المسيحية . ولا يمكن أن يكون المؤمن مخلص بالكتاب المقدس إلا دين واحد ، أما الديانات الأخرى فلا بد أن تكون زائفة أو ناقصة . حتماً إن العهد الجديد يبشر بسنة المحبة ولكن هذا ليس عذراً لنا لكى لا نقتصم من اللصوص والمقتلة ، فكيف يبيح لنا هذا أن نبقى على الهراطقة ؟

وعاد كاستيليو إلى الجدل فى كراسة دينية بعنوان : *Contra libelum Calivini* ، ولكنها ظلت نصف قرن دون أن تنشر . وسبق ديكرت فى مخطوطة أخرى بعنوان *De arte dubitand* بأن جعل من « فن الشك » أول خطوة فى البحث عن الحقيقة ودافع فى رسالته « المحاورات الأربع » عن الإرادة الحرة وعن احتمال خلاص عالمى . وفى عام ١٥٦٢ نشر رسالته « نصيحة إلى فرنسا الحزينة » ، توسل فيها عبثاً إلى الكاثوليك والبروتستانت بإنهاء الحروب الأهلية التى كانت تجتاح فرنسا وبأن يسمحوا لكل مؤمن بالمسيح « أن يصلى للرب وفق عقيدته هو وليس وفق عقيدة غيره من الناس » (٧٨) ، وكان من الصعب أن يسمع أحد صوتاً يشذ عن النغم السائد فى العصر .

ومات كاستيليو فقيراً بالغاً من العمر ثمانية وأربعين عاماً (١٥٦٣) ، وقال كالفرن إن وفاته المبكرة حكيم عادل من إله عادل .

٨ - كالفن إلى النهاية ١٥٥٤ - ١٥٦٤

ولعل كالفن قد عرف ميل كاستيليو الخفي إلى مذهب الموحدين - الإيمان بإله ليس ثلاثة في واحد ، ومن ثم رفض التسليم بألوهية المسيح ، ويمكن أن يغتفر له أنه كان يرى في هذا الشك الأساسي بداية النهاية للمسيحية . وخشى من هذه الهرطقة أكثر من أي شيء آخر لأنه وجدها متفشية في مدينة جينيف ذاتها ، وفوق كل شيء بين اللاجئين البروتستانت الفارين من إيطاليا . ولم ير هؤلاء الناس أي معنى في أن يستبدلوا بتجسده لا يصدق قدرأ محتوماً لا يصدق . وهاجمت ثورتهم الدعوى الأساسية للمسيحية وهي أن المسيح ابن الله . وكان لماثيو جريبالدي ، وهو أستاذ في فقه القانون في بادوا ، بيت صيفي بالقرب من جينيف . وتكلم بصراحة أثناء محاكمة سرفيتوس ضد العقاب بسبب الآراء الدينية ، ودافع عن حرية العبادة - بالنسبة للجميع ، فدعى للمثول أمام الخباس ، ونفى من المدينة إذ اشتبه في أنه يؤيد مذهب الموحدين (١٥٥٩) وكفل لنفسه التعيين في وظيفة أستاذ للقانون في جامعة تينينجن . وأرسل كالفن إلى الجامعة كلمة عن شكوك جريبالدي . فالزمته بأن يوقع اعترافاً يقر فيه بالثلاثية ، وبدلاً من أن يخضع فر إلى برن حيث مات متأراً بداء الطاعون في عام ١٥٦٤ . واستدعى جيورجيو بلاندراتا ، وهو طبيب إيطالي يقيم في مدينة جينيف للمثول أمام المجلس بتهمة مناقشة ألوهية المسيح ، ففر إلى بولندا حيث وجد شيئاً من التسامح بالنسبة إلى هرطقته .

وأعرب فالنتينو جنتيلي ، من كالايريا ، صراحة عن آرائه المؤيدة لمذهب الموحدين في مدينة جينيف ، فألقي في غيابة السجن بحكم عليه بالإعدام (عام ١٥٥٧) فراجع عن أقواله وأطلق سراحه وذهب إلى ليون فقبضت عليه السلطات الكاثوليكية ، بيد أنه أطلق سراحه عند ما أكد لهم أن مصلحته

الرئيسية تكمن في دحض مزاعم كالفن . وانضم إلى بلاندراتا في بولندا ،
وعاد إلى سويسرة حيث اعتقله حكام برن وأدين بتهمة الخنث بقسمه
والهرطقة وقطعت رأسه (١٥٦٦) .

ووسط هذه المعارك في سبيل الرب استمر كالفن يعيش في بساطة
وقد حكم جنيف بقوة شخصية مسلحة بأوهام أتباعه . وتدعم مركزه
عمرور المنيين . وكان ضعفه الوحيد في جسده الواهن : كان يشكو من
آلام في رأسه والربو وسوء الهضم والحصوة والنقرس ، وهصرت الحمى
جسده وأبرزت عظامه وشبكت وجهه فبدأت تقاطيعه مشلودة تم على القسوة
والكدر . وأصيب بمرض في ١٥٥٨ - ٥٩ استمر طويلاً وتركه ضعيفاً
واهناً مصاباً بنزيف متكرر من الرئتين . واضطر بعد ذلك إلى ملازمة
الفراش معظم الوقت على الرغم من أنه مستمر في الدراسة والتوجيه والوعظ
حتى عند ما كان يحمل حملاً في مقعد إلى الهيكل المقدس . وحرر وصيته
في يوم ٢٥ أبريل عام ١٥٦٤ وهو واثق تمام الثقة من اختياره للحجد
الأبدى ، وفي اليوم السادس والعشرين أقبل المأمورون وأعضاء المجلس
وجلسوا بجانب فراشه ، فطلب منهم المغفرة بسبب سوررات غضبه ،
ورجّاهم أن يتشبهوا بالعميدة الطاهرة للكنيسة التي اتبعت الإصلاح وجاء
فارييل وكان آنذاك قد بلغ العام الثمانين من عمره من نيوشاتل ليودعه الوداع
الأخيرة . وبعد مرور بضعة أيام قضاها كالفن في الصلاة والعذاب وجد
السلام (٢٧ مايو عام ١٥٦٤) . وكان تأثيره أعظم من تأثير لوثر ، ولكنه
سار في طريق كان لوثر قد مهده ، فقد أسبغ لوثر حمايته على الكنيسة الجديدة
بإحياء القومية الألمانية لتأييدها وكانت الحركة ضرورية ، ولكنها ربطت اللوثرية
رباطاً وثيقاً بالأصول التوتوية ، ولقد أحب كالفن فرنسا وجاهد
لكي يرفع من شأن قضية الهوجنوت ولكنه لم يكن وطنياً فقد كان الدين
بلده ، وعلى هذا فإن عقيدته ، مهما لحقها من تعديل ، استلهمت

البروتستانتية في سويسرة وفرنسا وسكوتلندة وأمريكا ، واستولت على قطاعات كبيرة من البروتستانتية في هنغاريا وبولندة وألمانيا وهولندة وانجلترا . ولقد أضفى كالفن على البروتستانتية في كثير من البلاد تعظيماً وثقة واعتزازاً بالنفس . مكنتها من أن تعيش وتصمد لألف محنة .

وقبل وفاته بعام انضم تلميذه أوليفيانوس إلى أورسينوس تلميذ ميلانكتون في إعداد وعظ هيدلبرج الذي أصبح تعبيراً مقبولاً لتقيده الإصلاح الديني في ألمانيا وهولندة . ووفق بيز وبولينجر بين مناهي كالفن وزونجلي في الإقرار السويسري البروتستانتي الثاني (١٥٦٦) الذي أصبح وثيقة رسمية للكنائس التي اتبعت الإصلاح الديني في سويسرة وفرنسا وتابع بيز باقتدار عمل كالفن في جينيف نفسها . بيد أنه ما أن مر عام حتى أخذ كبار رجال الأعمال الذين يسيطرون على المجالس في مقاومة محاولات مجمع الكرادلة والجمعية المبجلة بنجاح ازداد شيئاً فشيئاً ليستبدلوا بها الرادع الأخلاقي في العمليات الاقتصادية ، وبعده وفاة بيز (١٦٠٨) دعم أغنياء التجار نفوذهم (سيادتهم) وفقدت الكنيسة في جينيف مزاياه الإدارية - (التوجيهية) التي كان كالفن قد ظفر بها لها في الشؤون غير الدينية . وفي القرن الثامن عشر خفف تأثير فولتير من التقليد الكالفيني ، وقضى على سيطرة الأخلاق المتطهرة النزعة بين الناس . وكافحت الكاثوليكية في بجلد وصبر لتسترد مكانها في المدينة ، وعرضت مسيحية خافية من الكدرونزعة أخلاقية نحالية من الصرامة ، وكان ٤٢ في المائة من السكان في عام ١٥٩٤ كاثوليك و ٤٧ في المائة منهم بروتستانت (٧٩) .

ولكن أعظم بناء قام به الإنسان له أثر كبير في جينيف هو النصب التذكري للإصلاح الديني « المبجل الذي يمتد في بهاء على طول سور بستان ويحتفل بانتصارات البروتستانتية وترتفع في وسطه تماثيل فاريل وكالفن وبيز ونوكس القوية » .

وفي غضون ذلك كانت حكومة رجال الدين الصارمة التي أقامها كالفن
تثبت براعم ديمقراطية ، ثم إن جهود الزعماء الكالفينيين في سبيل توفير التعليم
للجميع وتفقيهم وغرسهم شخصية مهذبة قد ساعدت أوساط الناس الأشداء
في هولنده على إبعاد الحكم المطلق الإسباني الدخيل ودعم ثورة النبلاء ورجال
الدين في سكوتلنده ضد ملكة فاتنة ولكنها مستبدة . وكان للنزعة الرواقية
في عقيدة صارمة الفصل في خلق أرواح قوية للمعاهدين الاسكوتلنديين
والمطهرين الإنجليز والهولنديين والحجاج في نيوانجلاند ، وثبتت قلب كرومويل
واهدى بها قلم ميلتون الكفيف وحطمت سلطان آل ستيوارت المستبدين .
وشجعت الناس الباسلين والقساة على الظفر بقارة وعلى نشر أساس التعليم
والحكم الذاتي إلى أن يستطيع كل الناس أن يصبحوا أحراراً .

وسرعان ما طالب الناس الذين اختاروا كهان أبرشياتهم بأن يكون لهم
حق اختيار حكامهم وأصبحت جماعة المصلين التي تحكم نفسها بنفسها بلدية
تحكم نفسها بنفسها ، وهكذا أبرزت أسطورة الانتخاب الإلهي نفسها في
صنع أمريكا .

وعندما تم أداء هذا العمل أهملت النظرية البروتستانتية التي تقول
بالجبر ، ولما عاد النظام الاجتماعي إلى أوروبا بعد حرب الثلاثين عاماً وفي
انجلترا بعد ثورتي عام ١٦٤٢ و ١٦٨٩ وفي أمريكا بعد عام ١٧٩٣ تغير
المخار بالانتخاب الإلهي إلى اعتراز بالعمل وإنجازه وشعر الناس بأنهم
أقوى وأكثر أمناً .

وقل الخوف وأسلمت القسوة المدعورة التي ولدت رب كالفن إلى رؤية
أكثر رحمة ألزمت بإعادة النظر في مفهوم الألوهية . وعقدت بعد عقد نبذت
الكنائس التي تسلمت زمام القيادة من كالفن عناصر عقيدته القاسية ،
وواتت الجرأة المشتغلين باللاهوت على أن يؤمنوا بأن كل من ماتوا في

الطفولة كتب لهم الخلاص ، وأعلن قس ميجل دون أن يسبب أى اضطراب
أن « عدد الضالين نهائياً . . . سيكون طفيفاً جداً » (٨٠) . ونحن نشعر بالشكر
لهذا التأكيد العظيم .

ونوافق حتى على أن الخطأ يعيش لأنه يخدم حاجة حيوية ما . ولكننا
سوف نجد دائماً من الصعب أن نحب الرجل الذى أظلم الروح البشرية
بأكثر المفاهيم عن الله سخفاً وكفراً فى تاريخ السخف الطويل الميجل
بأسره .

المراجع مفصلة

CHAPTER XVI

1. Acton, *Lectures on Modern Hy*, 91; Thompson, *Social and Economic Hy*, 425, 428; Ranke, *Reformation*, 151.
2. Friar Myconius in Thatcher, O. J., *Source Book for Medieval Hy*, 339.
3. Robertson, W., *Charles V*, 1, 372.
4. Pastor, VII, 349.
5. Luthér, *Works*, I, 26; Thesis 75.
6. Beard, *Luther*, 257.
7. Acton, 97.
8. *Camb. Mod. Hy*, II, 127.
9. Ranke, *Reformation*, 154.
10. Beard, 121; Smith, P., *Luther*, 2.
11. In D'Arcy, M.^cC., *Thomas Aquinas*, 254.
12. Ranke, 144; Beard, 158.
13. Beard, 165.
14. Luther, *Tischreden*, lxxvli, In Gregorovius, *Hy of Rome*, VIII-1, 249.
15. Gansse, H. G., in *Cath. En.*, IX, 441.
16. In Ganssen, III, 97.
17. *Ibid.*, 89.
18. *Cath. En.*, IX, 442.
19. In Pastor, VII, 354.
20. *Cath. En.*, IX, 443.
21. In Beard, 231-3.
22. *Camb. Mod. Hy*, II, 132.
23. Ranke, 160.
24. Roscoe, Wm., *Leo X*, II, 95, 105-7.
25. Pastor, VII, 367.
26. H. von Schubert in Smith, *Luther*, ix.
27. In Pastor, VII, 378.
28. Smith, *Reformation*, 700.
29. Beard 270.
30. *Ibid.*, 278-4; Ranke, 195; *Cath. Ed.*, IX, 448; Acton, 94-5.
31. Pastor, VII, 382; Beard, 272.
32. Smith, *Luther*, 56.
33. *Cath. En.*, IX, 444.
34. Smith *Luther*, 71.
35. Letter of Aug. 20, 1581, In Froude, *Erasmus*, 397.
36. In Ledderhose, *Life of Melancthon*, 88.
37. In Beard, 279.
38. In Strauss *Rutten*, 293.
39. In Pastor, VII, 389; Janssen, III 111.
40. Strauss, 225.
41. *Werke*, VIII, 203, In Beard, 352.
42. Pastor, VII, 384; Smith, *Luther*, 75.
43. Luther, *Works*, II, 68.
44. *Ibid.*, 69-70.
45. 76.
46. 78.
47. 83-99, Italics, mine.
48. 110.47.
49. 138-9.
50. *Babylonian Captivity*, In *Works*, II, 188.
51. *Ibid.*, 257.
52. In Janssen, III, 129.
53. *Works*, II, 269-71.
54. *Ibid.*, 298.

55. 802-10.
56. 299.
57. 331.
58. 8:8.
59. Ranke, 215; Pastor, VII, 400-8; Janssen, III, 80.
60. Ranke, 220; Beard, 175.
61. Hume, M., *The Spanish People*, 331.
62. Adams, Brooke, *Civilization and Decay*, 98.
63. Strieder, *Jacob Fugger*, 153.
64. Michelet, III, 174.
65. Thompson, *Social and Economic History*, 428.
66. Armstrong, E., *Charles V*, I, 69.
67. Janssen, III, 178.
68. Pastor, VII, 428.
69. Lingard, *History of England*, IV, 225.
70. In Janssen, III, 172; Bainton, *Here I Stand*, 175.
71. Strauss, 276f.
72. Beard, 421-3.
73. Janssen, III, 182.
74. Beard, 412.
75. Bainton, *Here I Stand*, 185.
76. Ibid.; Schaff, *German Reformation*, 29.
77. Bainton, *Here I Stand*, 185; of Cath. En. IX, 446d, and the Protestant authors there cited.
78. Creighton, *History of the Papacy*, VI, 176.
79. Carlyle, Thomas, *Heroes and Hero Worship*, 360.
80. Bainton, *Here I Stand*, 188.
81. Acton, 101.
82. Bainton, 189.
83. Ibid., 195.
84. Taylor, M. O., *Thought, and Expression in the 16th Century*, II, 213.
85. Bax, *German Society*, 142; Lecky, *History, of Rationalism*, I, 22.
86. Janssen, III, 246-8.
87. Bainton, 200.
88. Ibid., 205-6; Ranke, 251.
89. Luther, *Works*, III, 206-7.
90. Ibid., 211.
91. Ranke, 254.
92. Bainton, 208.
93. Janssen, III, 259.
94. Ibid., 263.
95. Bainton, 214.
96. Beard, 127.
97. Janssen, IV, 98.
98. Smith, *Luther*, 155.
99. Ibid., 168.
100. 380.
101. Froude, *Erasmus*, 294.
102. Janssen, XIV, 408.
103. Luther, *Table Talk*, 118.
104. *Werke* (Walch), VIII, 2042, in Beard, *The Reformation of the 16th Century in Relation to Modern Thought and Knowledge*, 161.
105. Luther's *Table Talk*, 358.
106. Luther, *Werke* (Erlangen), VI, 142-8, in Maritain, *Three Reformers*, 38 and Beard, *Reformation* 156.
107. In Paulsen, *German Education*, 47.
108. In Janssen, III, 240.
109. Schaff, *German Reformation*, 85-6.
110. Luther, *T.T.*, 24.
111. Smith, *Luther*, xi.
112. *T.T.*, 2.
113. Ibid., 91, 96.
114. 67.
115. 15.
116. 797; Smith, *Luther*, 362.

117. *T.T.*, 574.
 118. Sermon of March 6, 1521;
 Janssen, XII, 316.
 119. *Maritain Three Reformers*, 80.
 120. Smith, *Reformation*, 658.
 121. Lecky, *Rationalism*, I 22,
 122. *T.T.* 577, 597; Janssen, XIV,
 87.
 123. Janssen, XII, 817.
 124. Lecky, *Rationalism*, I, 28.
 125. *T.T.*, 579-86, 6
 126. Luther's *Works*, III, 235-7.
 127. *Works*, II, 39.
 128. *Ibid.*, 316.
 129. *T.T.*, 288.
 130. Romans, x, 9.
 131. Mark, xvi, 16.
 132. *Works*, II, 316.
 133. *Werke*, XL, 436; XXV, 330,
 142, 130; *Werke* (Erlangen),
 XVIII, 260.
 134. *Werke* (Erlangen), XX, 58; LX,
 107-8; *Werke* (Weimar), X-2, 276.
 135. O'Brien, G., *Economic Effects
 of the Reformation*, 41.
 136. *Works*, II, 328-9.
 137. *Ibid.*, 331.
 138. Romans, ix, 18.
 139. Luther, *De servo arbitrio*, in
 in Janssen, IV, 104.
 140. *De servo arbitrio*, in Lecky,
 Rationalism, I, 140.
 141. In Fülöp - Miller, R., *Saints
 That Moved the World*, 291.
 142. Janssen, IV. IV, 114.
 143. *T.T.*, 96.
 144. *Ibid.*, 178.
 145. *Works*, II, 188.
 146. *Werke*, XXVIII, 142-201. in Bax,
 German Society, 188-90.
 147. *Works*, III, 258-61.

148. In Janssen, III, 268.
 149. In Allen, J. W., *Political Thou-
 ght*, 380.
 150. *Works*, IV, 25.
 151. *Ibid.*, 26, 29,
 152. *Works*, II, 160.
 153. *ibid.*, IV, 35.

CHAPTER XVII

1. Rechart. E., *German Civiliza-
 tion*, 260.
2. Janssen, III, 214.
3. Pastor, IX, 134.
4. Schapiro, J. S., *Social Reform*,
 84-5.
5. Richard, 260; *Camb. Mod. Hy*;
 II, 174.
6. Luther, *Works*, III, 204-5.
7. *Camb. Mod. Hy*, II, 188.
8. Janssen, III, 221; Schapiro,
 103-14.
9. Janssen, III, 228; *Camb. Mod.
 Hy*, II, 177.
10. Janssen, III, 342.
11. *Comb. Mod. Hy*, II, 198.
12. Kautsky, 116-119.
13. *Ibid.*, 121.
14. 180.
15. Ranke, *Reformation*, 838.
16. In Kautsky, 139.
17. *Ibid.*, 144.
18. Luther, *Works*, IV, 210-16.
19. *Ibid.*, 220-1.
20. 240.
21. 244.
22. Ranke, 450.
23. Janssen, IV, 166; Bax, *Peasants'
 War*, 79-84.
24. Ranke, 348-9.
25. Robinson, J. H. *Readings, in
 European Hy*, 289f; Bax, *Peasa-
 nts' War*, 156-60.

- . Ranke, 344.
27. Bax, *Peasants' War*, 101.
28. Ibid., 118-30.
29. In Janssen, IV, 208.
30. Bax, 76, 224.
31. Ibid., 205.
32. 229.
33. Luther, *Works*, IV; 248-54.
34. Bax, 265-6.
35. Ibid., 312-5.
36. 303.
37. *Camb. Mod. Hy*, II 191.
38. Bax., 336-7.
39. Armstrong, *Charles, V*, I, 222.
40. Ranke, 360.
41. Schapiro, 86; Smith, *Luther*, 146.
42. Ibid., 165.
43. 164.
44. *Works*, IV, 261.
45. Ibid., 261-72.
46. *Camb. Mod. Hy*, II, 192.
47. Ranke, 728.
48. Payne, E., A., *Anabaptists*, 11.
49. Kautsky, 164.
50. Ibid., 166.
51. Allen, *Political Thought* 48.
52. Ranke, 732-3.
53. Schaff, *Swiss Reformation*, 82.
54. Janssen, IV, 114.
55. Kautsky, 176.
56. Ibid., 185.
57. 187.
58. Ranke, 729.
59. Kautsky, 192.
60. Ranke, 757.
61. Kautsky, 255-6.
62. Ibid., 257.
63. 260.
64. 273.
65. Ranke, 745-6.
66. Smithson, R. J., *Anabaptists*, 179-80.

67. Kanteky, 299; Ranke, 755.
68. Smithson, 181.
69. Fosdick, *Great Voices of the Reformation*, 285.
70. Payne, *Anabaptists*, 16.

CHAPTER XVII

1. Cath. En., XV, 773.
2. Schaff, *Swiss Ref.*, 6.
3. Ibid.
4. Hughes, *Reformation*, I, 124.
5. Schaff, 24.
6. *Camb. Mod. Hy*, II, 713.
7. Schaff, 32.
8. Ranke, 513.
9. Schaff, 52-3.
10. Fosdick, 183.
11. Ibid., 173, 191.
12. Lea, *Auricular Confession*, I, 519.
13. Fosdick, 190.
14. Schaff, 59.
15. *Camb. Mod. Hy*, II, 321, 334.
16. Smith, *Erasmus*, 301.
17. Schaff, 94.
18. Bvinton, *Hunted Heretic*, 36-8.
19. Erasmus, Epistle of May 9, 1529, in Schaff, *Swiss Reformation*, 112.
20. *Camb. Mod. Hy*, II 207-10.
21. In Janssen, V, 231.
22. Schaff, 177.
23. *ibid.*
24. Bossuet, *Variations*, II, 29.
25. En. Brit., XXIII, 998.
26. Schaff, 188.
27. Smith's *Luther*, 290.
28. T. T., 801.

CHAPTER XIX

1. Kauffman Collection, Berlin.
2. *Werke*, XLII, 582, in Maritain, 171.
3. *Werke*, X-2, 304, in Maritain, 171.

4. *T.T.*, 715.
5. *Ibid.*, 752.
6. Maulde, *Women of the Renaissance*, 467.
7. *Werke*, X-2, 301, in Maritain, 184.
8. Bainton, *Here I Stand*, 299.
9. *T.T.*, 715.
10. Bainton, 301.
11. *T.T.*, 737.
12. *Ibid.*, 751.
13. In Schaff, *Swiss Reformation*, 417.
14. In Fosdick, 71.
15. Smith, *Luther*, 354.
16. Schaff, *German Reformation*, 465.
17. Bainton, 804.
18. Smith, 320.
19. Letter to Pope Leo, 1520.]
20. Luther, *Works*, I, 7.
21. Janssen XI, 340; Luther, *Works*, II, 231; Bainton, 295.
22. Bainton, 295.
23. Janssen, III, 242.
24. *Werke*, VIII, 624, in Martian, 188.
25. In Carpenter, *Pagan and Christian Creds*, 207.
- [26. *T.T.*, 462.
27. *Werke*, XXV, 108, in Cath. En., IX, 447b.
28. *T.T.*, 319.
29. Gasquer, *Eve of the Reformation*, 173.
30. Smith, *Luther*, 407; Bainton, *Here I Stand*, 295.
31. Smith, 355.
32. *Ibid.*, 326.
33. In Janssen, XI, 253.
34. Bainton, 225.
35. *T.T.*, 100.
36. Smith, *Luther*, 322.
37. *Ibid.*, 349.
38. *Ibid.*,
39. Janssen, XII, 16; *T.T.*, 114.
40. *ibid.*, 257.
41. 91, 96.
42. 780.
43. Jusserand. *Literary History of the English People*, II, 167.
44. *T.T.*, 841.
45. *Ibid.*, 413.
46. Luther, *Works*, I, 76.
47. *ibid.*, 142.
49. Bainton, *Here*, 314.
50. *Works*, III, 204, 207.
51. Preface to the Shorter Catechism.
52. *Werke* (Erlangen), XXIX, 46-74, in Jewish Encyc., VIII, 213.
53. *T.T.*, 275.
54. *Werke*, (Erlangen). XXXII, 217-38, in Janssen, III, 211-12.
55. *Werke*, (Erlangen), XXVIII, 144, in Maritain, 15.
56. Letter of Aug. 26, 1529, to Jos, Metsch, in Smith, *Luther*, 218.
57. In Froude, Erasmus,] 389.
58. *T.T.*, 61.
59. Putnam, *Books*, II, 244.
60. *Werke*, XXXI-1, 208f.
61. *Werke*, (Erlangen) XVI. in Allen, *Political Thought*, 27.
62. Bax, *Peasants' War*, 352.
63. Smith, *Luther*, xiv.
64. *Id.*, *Reformation*, 645.
65. Janssen, IV, 140-1.
66. Murray, *Erasmus and Luther*, 366.
67. Janssen, XIV, 503.
68. Janssen, V, 290.
69. Luther, *Commentary on Psalm LXXXII*.
70. Janssen, V, 491, 502, 505.
71. Janssen, VI, 46 - 63, 181, 190, 208-14, 348-9; Lecky, *Rationalism*, II, 15.

72. Janssen, IV, 282f.
73. Lea, *Studies in Church History*, 492.
74. *T.T.*, 889.
75. Smith, *Reformation*, 104; Pansky, Dürer, 1283; *Cath. En.*, IX, 447c.
76. Janssen, III, 198.
77. *Ibid.*, 342.
78. Robertson, J. M., *Freethought*, I, 455.
79. Erasmus, letter to Pirckheimer, Feb. 21, 1529.
80. Janssen, III, 361.
81. Strauss, *Hutten*, 280.
82. Smith *Erasmus*, 233.
83. In Michelet, III, 170.
84. Smith, *Erasmus*, 384.
85. Letter of March 5, 1518.
86. Letter of October 17, 1518.
87. In Froude, *Erasmus*, 189.
88. Smith, *Erasmus*, 219.
89. *Ibid.*, 221.
90. *Ibid.*, 22; Froude, *Erasmus*, 283-4.
91. In Murray, *Erasmus*, 76.
92. Froude, 270-2.
93. Smith, *Erasmus*, 241.
94. *Ibid.*, 256.
95. Erasmus, *Epistles*, I, ep. lxxxv.
96. *Ibid.*, ep. cccixvi.
97. Froude, 308.
98. Letter of Feb., 1523, in Froude, 310.
99. Acton, 105; Lecky, *Reformation*, I, 140.
100. *Ibid.*,
101. Bainton, *Here I Stand*, 254-5.
102. Froude, 340, 881.
103. In Allen, *Political Thought*, 80.
104. Froude, 408.
105. *Ibid.*, 857.

106. In Froude, 400.
107. Erasmus, *Heperapistes*.
108. In Froude, 352.
109. Walpole, H., *Letters*, III, 184.
110. Beard, *Luther*, 93.
111. Acton, 89.

CHAPTER XX

1. Janssen, IV, 62.
2. *Cf. Comb. Mod. Hy*, II, 159.
3. Janssen, VI, 534.
4. Janssen, V, 277.
5. Lea, *Clerical Celibacy*, 580.
6. Janssen, VII, 247.
7. *Id.*, IV, 47.
8. *Id.*, IX, 180.
9. *Id.*, XIII, 24.
10. Froude, *Erasmus*, 887.
11. Vambéry, 283.
12. Janssen, IV, 119.
13. *Ibid.*, 109-11.
14. *En. Brit.*, XI, 288.
15. Janssen, V, 271; Ranke, 614.
16. *Cath. En.*; XI, 458.
17. *Comb. Mod. Hy*, II, 219.
18. Janssen, V, 428.
19. Luther, *Works*, V, 128; Pastor, XI, 69, 81-7.
20. Janssen, V, 495f; *Comb. Mod. Hy*, II, 233.
21. Pastor, XI, 862-3.
22. *Ibid.*, 375-98.
23. Ledderhose, 177-82.
24. *Ibid.*, 188.
25. *Cath. En.*, IX, 452d.
26. In Bainton, *Here I Stand*, 846.
27. Pastor, XI, 67.
28. Smith, *Luther*, 809.
29. *Werke* (Walch), XX, 228, in *Cath. En.*, IX, 458d.
30. Luther, *Works*, V, 163.

31. In Tawney, *Religion and the Rise of Capitalism*, 101; Bainton, *Here I Stand*, 238.
32. *Werke*, XIX, 626, in Allen, *Political Thought*, 22.
33. Bax, *Peasants' War*, 851.
34. *Werke*, XV, 276, in Bax, 852.
35. Smith *Luther*, 374.
36. Letter of Sept. 3, 1531.
37. Smith, 196.
38. In Bebel, *Woman under Socialism*, 68.
39. Janssen, VI, 81-6.
40. *Comb. Mod. Hy*, II, 241.
41. Ledderhose, 170.
42. Janssen, VI, 122.
43. *Camb. Mod. Hy*, II, 241.
44. In Smith, *Luther*, 399f.; Pastor, XI, 216f.
45. *Werke*, XXV, 124-55, in Janssen, VI, 271-2, and Pastor, XII, 216f.
46. Weber, Hermann, *On Means for the Prolongation of Life*, 48.
47. Smith, *Luther*, 405.
48. *Ibid.*, 409.
49. James, Wm., *Varieties of Religious Belief*, 137.
50. *Ibid.*
51. *T.T.*, 633.
52. *Ibid.*, 15.
53. 19.
54. 235.
55. In Robertson, *Charles V*, II, 158n.
56. Smith, *Luth*, 419.
57. Armstrong, *Charles V*, I, 138.
58. *Comb. Mod. Hy*, II, 276.
59. *Ibid.*, 278.
60. Schaff, *Swiss Reformation*, 387, 548; Janssen, XIV, 149.
61. *Id.*, VII, 139.
62. *Id.*, IV, 362-3; Schapiro, 78; Allen, *Political Thought*, 33.
63. In La Tour, IV, 181.
64. In Janssen, VII, 139.